الله والفقر

عنوان الكتاب : اللّه والفقر

الكاتب : صدقي إسماعيل

اختيار وتقديم: مالك صقور

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/120/ حزيران

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

صدقي إسماعيل

الله والفقر

اختيار وتقديم : مالك صقور

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (120)

الله والفقر

تقديم: مالك صقور

"في كل يوم اسأل نفسي مراراً: ماذا فعلت؟ المشاعر الثائرة لا تكفي، والفكر نفسه، وهو قدر علينا لا يجدي نفعاً، حتى العمل أو الاستشهاد في سبيل القضية لا يكفي أيضاً. هناك حقيقة واحدة تصرخ: أبداً.. وتلح: الفجر يجب أن يطلع".

هذا هو باختصار عالم الكاتب والروائي والأديب صدقي إسماعيل والمسرحي أيضاً، ولعل أول ما يطالعنا في قصته "اللّه والفقر" والتي اخترناها من بين ثلاث قصص: قبل السهرة، والعطب شخصية بطلها التي أحببناها، وتفاعلنا معها، وعشناها قراءة ودراما من خلال المسلسل التلفزيوني "أسعد الوراق" أو بالأحرى الرواية التلفزيونية التي بثها التلفزيون العربي السوري في سبع حلقات في العام 1975 حيث أدى دور أسعد الوراق الفنان الكبير هاني الروماني لتأخذ مساحة

واسعة من اهتمام المشاهدين والنقاد وعشاق درامانا حتى إذا ما حلَّ العام 2010 أعيد إنتاجه ضمن مسلسل طويل وليكون الممثل المتألق تيم حسن بطله، وقد كان لشغله على هذه الشخصية الأثر الأبعد في تضمين حلقاته معنى إنسانياً وقيماً جعلت الجيل يلتفت من جديد إلى الرواية المكتوبة والاطلاع عليها كفن له خاصيه وتأثيره وأبعاده ودوره سيان في التوظيف الدرامي أو التوثيق الواقعي الذي يعيشه الكاتب حقيقة ويؤطره بلا تقزيم خدمة للفن الروائي والبعد الأخلاقي والنفسي والفكري والوظيفي الذي يتوجه عبره الكاتب إلى القارئ في أي زمان ومكان ومجتمع وبيئة.

ولد الكاتب الكبير والأديب صدقي إسماعيل في حي /العفان/ بمدينة انطاكية، وهو الابن الثاني للشيخ علي إسماعيل. أما شقيقه الأكبر فهو الفنان المعروف /أدهم إسماعيل/ وشقيقاه الأصغران هما /عزيز ونعيم/ وجمعيهم فنانون مبدعون كان لهم الفضل الأكبر والأثر الأبعد في إغناء حركة الفن التشكيلي وتطورها في سورية وحتى خارجها.

كان والده يملك متجراً صغيراً لبيع الأقمشة في سوق /الجسر/ بأنطاكية. تلقى علومه الابتدائية في مدرسة حيه /العفان/ وتابع دراسته في مدرسة /ثانوية انطاكية/1936/

لينتقل وشقيقه أدهم إلى /حلب/ وينال هناك شهادة البكالوريا الثانية ـ قسم الفلسفة /1954/ ليلتحق بدار المعلمين حتى /1948/. انتسب إلى كلية الآداب قسم /الفلسفة/ بجامعة دمشق وتخرَّج فيها في العام /1952/ وحاز على إجازة /الليسانس/ بتفوق، ودبلوم في التربية، وعُيِّن مدرساً في حلب. بعد ذلك غادرها إلى دمشق /1954/ وبدأ ينشر مقالاته في الصحف والمجلات، ليجمع كل ما كتبه في كتاب أسماه /الينابيع/ يقول فيه الكاتب الأَديب /انطون مقدسي/:

/"أَن توجد، معناه أن تحب
وعندما تعرف أن الحب أقوى من الموت
تلك تجربة الينابيع
والينابيع قراءات في سفر الحياة
قراءات في كل ينبوع
والينابيع ليست مرهونة بعضها إلى البعض الآخر
كما أنها لا تُشكِّل منظومة
بل هي أشبه
بحديقة تطوف بين أزاهيرها كما تشاء"/

في العام 1956 أصدر الأديب صدقي إسماعيل جريدته الخاصة /الكلب/ وهي جريدة مخطوطة هزلية ناقدة، كانت بخط يده، كانت تُقرأ في مجالسه الأدبية بين الأصدقاء، واستمرت بالصدور حتى وفاته /1972/ وكان يُنسخ منها نسخ عدة ويوزعها على أصدقائه. في العام /1957/ تزوج من السيدة المثقفة عواطف الحفار/ عضو المكتب التنفيذي للاتحاد العام النسائي ـ رئيسة تحرير مجلة المرأة.

في العام 1959 حرر زاوية /خواطر/ في جريدة /الجماهير/ ونشر دراسات حول الأدب العالمي. كما ساهم مع بعض الطلاب في الحركة الوطنية التي كان يقودها المفكّر /زكي الأرسوزي/ بعد مؤامرة اغتصاب لواء اسكندرون، وقد أصيب برصاصة من أحد الأتراك وأجريت له عملية جراحية عاجلة، ظل أثرها طريح الفراش لأكثر من شهر. كتب الشاعر الكبير /سليمان العيسى/ مقالاً في جريدة الثورة بتاريخ 1972/10/1 جاء فيه:

/"في مدرسة العفان الابتدائية التقينا. كان طفلاً نحيلاً كالطيف مشعاً كخيط الفجر.. بريئاً كالحب... وديعاً كجناح عصفور. جئت من القرية إلى انطالية لأتعلّم وكان صدقي أول عصفور شاركني اللعب والدرس والغناء. في

الابتدائية كان يقرأ الأدب العربي: قديمه وحديثه في الابتدائية أنشأ صدقي /والقول ما زال للشاعر الكبير/ أول صحيفة أدبية قومية، وتولى تحريرها، ونشر لي قصيدة فيها. وذات صباح كنا في باحة المدرسة، وفجأة لعلع الرصاص قريباً منا... معركة من تلك المعارك اليومية التي كانت تنشب بين العرب والأتراك في اللواء تبدأ أحياناً بالحجارة وتنتهي بالرصاص، وبطرفة عين تخلو باحة المدرسة من أطفالها... بطرفة عين كانوا مبعثرين بين الأشجار الضخمة القريبة يقاتلون مع الكبار، وتسقط الحجارة من أيدينا الصغيرة على صوت يصرخ فجأة: صدقي أصيب برصاصة. كانت الرصاصة الأولى التي تدرَّب عليها الطفل العربي صدقي إسماعيل".

ويبقى السؤال: كيف تمَّ التطابق والتناغم ما بين صدقي الاسم وصدقي الفعل، وكيف سبق الشيخ علي إسماعيل الزمن ليطلق بشارة الصدق على ذلك الطفل المبدع والصادق والوطني الذي يجعلنا نسخر من أولئك المقصِّرين الذي لم يعطوا شيئاً وادعوا كل شيء نخجل من أنفسنا أمام هذه القامة الكبيرة التي تمتد ما بين الأرض والسماء وبرغم ما قدمته تخجل من نفسها وهي الثائرة ـ أبداً ـ الوطنية بامتياز القومية العربية الحقيقية، ذات البعد الثقافي بل الفضاء الثقافي الواسع الواسع.... هو ذلك ـ صدقي ـ وصدقكم وصدق الوطن

وها هو اتحاد الكتاب العرب ينحني إجلالاً لصدقي إسماعيل المؤسس له في العام /1969/ ورئيسه حتى /1972/ وهاهي مجلته الموقف الأدبي تتماهى بقامته وتفخر بقلمه رئيساً لتحريرها في القرن الماضي وها هي الكلمات تسطر لمايستروها صدقي ملوَّحة أمام مثواه في مقبرة الدحداح بدمشق: تواضعت فزدت عظمة وكتبت فحلقت عوالم فضائية رحبة وسطرَّت وكتبت عن الفقراء والمسحوقين مؤكداً من جديد بأنك لست صدقي بل الصدق عينه، والحقيقة ذاتها، والإبداع بلا قيود أو حدود.

"في قرى الشمال حكايات كثيرة عن رجال عاشوا حياة عادية، ثم أتيحت لهم، في النهاية، شهرة خلقية أو دينية، واعتبروا من الأولياء الذين يتبرك باسمهم كثيرون من أبناء الريف السذج.. وهذه قصة واحد منهم".

1

منذ عشرات السنين لم يعرف حي "الجبل" رجلاً مظلوماً مثل أسعد الوراق، فقد سجنته الحكومة ثلاث مرات في أقل من عام. ولم يكن له من ذنب، إلا أن رجال الشرطة كانوا يتأخرون في معرفة المذنبين. وكان من الممكن أن تمضي هذه المصائب دون أن تترك أثراً في حياة الرجل، لولا أنها عاجلته أثناء الأشهر الذهبية التي كان يستعد فيها للزواج. ولم يكن استعداداً بالمعنى المألوف: شراء الثياب للعروس، وتأثيث البيت، والتأهب لحفلة الزفاف ـ وهي أمور لا أهمية لها في تقاليد الحي ـ بل كانت هذه الأشهر أعنف صفحات الحب في تاريخ حياة أسعد: المرحلة الملتهبة من عاطفة الشباب، حين يقع

في شباك الهوى، كما يقولون، ويعاني انفعال الوجد الحار، ونشوة الغرام الجامحة. ولكن هذه العبارات الدارجة لا تعني مضمونها الشعري في تجربة إنسان، مثل أسعد، ولد في كوخ قذر متصدع الجدران، وترعرع ـ والأصح أن نقول كبر جسمه ـ في أزقة ضيقة تتقاسمها مجاري المياه الآسنة، وخطوات العابرين الكسالى، في جميع أوقات النهار. كان للحب في نظره معنى واحد، هو أنه سوف يحصل على امرأة وأطفال. ومع هذا فقد كان في غمرة من الهيجان العاطفي، لا يمكن إلا أن تسمى حباً: اللهفة للقاء الخطيبة ـ فقد خطبها من أول العام ـ والكلمات المتلعثمة، والخجل، والارتعاد أحياناً، وقلق الانتظار، والتصورات العارية في ساعات الفراق، وشهوة الامتلاك. وعلى الرغم من أن الأحداث قد أفسدت عليه هذه الفترة الدافئة من فترات العمر، فقد كان له من طيبة القلب ما دفعه إلى أن يغتفر للحكومة كل شيء، حتى وهو وراء قضبان السجن، ما دام قد احتفظ بيقين، لا يناله الريب، أن الزواج لابد من أن يتم.

ولم يكن ما يشوب هذا اليقين إلا إيمان أسعد، في الوقت نفسه، بأن الحكومة لا يمكن أن تخطئ، وهو إيمان توارثته الأجيال المتعاقبة في الحي منذ أقدم العصور.

وكان من الممكن أن يتحرر أسعد من هذه الوراثة، لأنه كان يعيش وحيداً منعزلاً عن حياة المجتمع. فقد مات أبوه عام ولادته، ولم يبق له إخوة. وفي إحدى سنوات الصقيع الفاجعة ماتت أمه أيضاً. وكان قد بلغ السابعة عشرة من عمره، السن التي يبدو فيها موت الأهل أمراً غير خطير، ولاسيما أن أسعد كان منذ سنوات قد اعتاد التشرد. ثم بدأ يشتغل لكي يؤمن المعيشة لأصغر عائلة عرفها النوع البشري: العائلة التي لم يبق منها إلا العائل. ولما كان منفرداً ـ كما رأينا ـ فقد اختار مهنة تلزمه بأن يكون له رفيق. ولا يعرف أحد كيف استطاع أسعد ذات يوم أن يحصل على حمار؛ فاستخدمه أولاً في نقل الحجارة لرصف الطرقات، ثم استبدلها بأكياس الطحين، فأصبح

السفير المتنقل الوحيد بين بيوت الحي وطاحون المدينة.

كان ينهض في الفجر ليحمل أكياس القمح إلى الطاحون. فيتنقل بين البيوت دون استئذان. ولم تكن بيوتاً بالمعنى الصحيح، بل حظائر من الأكواخ الرمادية، مهترئة الأبواب في الغالب، متعفنة الجدران، تغطيها سطوح مائلة من القرميد الأدكن، لم يألفه من الطير إلا الغراب، الذي يحتل بأجنحته السوداء فضاء الحي طوال الشتاء، وتخلفه في الصيف فرادى اليمام، تجاوب بهديلها الشاكي صياح الديكة، وضوضاء النسوة المبكرات على الشجار، وبكاء الصغار.

ذلك هو صباح أسعد الوراق، في كل يوم، مع أكياس القمح، التي تجد مستقرها واحداً تلو الآخر، على ظهر الحمار. ومع أنها غرقت بالقمح ـ حرصاً على سمعة أصحابها ـ فقد كانت ممتلئة بمزيج نادر من الذرة البيضاء والشعير، ولم يزرها القمح، إلا بالاسم. وذلك يعني أن أهل الحي لم يكونوا أفضل غذاء من

أسعد الوراق وحماره، وإن كان بينهم من يأكلون خبز الحنطة الأشقر في أيام العيد والمناسبات المماثلة، ولكنهم كانوا يشترونه من الأفران. أما مؤونة الأم المألوفة فقد كانت أكثر تواضعاً في كل حين.

وكان أسعد يربط حماره في ساحة صغيرة عند مدخل الأزقة، تمتد منها طريق عريضة، أدركتها حضارة الأسفلت ذات يوم؛ ولكن المياه القذرة بقيت تلازم ضفتيها حتى نهاية المدينة؛ ثم تبدأ الطريق الترابية بين الحقول والبساتين إلى أن تبلغ الطاحون. ولهذه الأمكنة جميعاً دور هام في قصة أسعد الوراق، فقد سجن لأول مرة بسبب مربط الحمار. في ذات مساء عاد بأكياسه المغبرة، وهو يغني ـ كما هي عادته حين يصل إلى الحي ـ وربط الرسن الطويل بوتد من الحديد، عثر عليه صدفة في أرض الساحة. وكان الظلام قد غمر البيوت والأزقة، على الرغم من ارتعاد الفوانيس الصفراء بين قضبان النوافذ العارية؛ وخفتت أصوات النساء، وتلاشى لعب الأطفال، وبدأت حجارة الزقاق الكبير

تستقبل خطوات الرجال المكدودة، عائدين من عمل النهار، مستسلمين لكآبة المساء، لولا السحابات العابرة من رائحة الخمر، تكلل بين الحين والآخر غناء كهل يترنح في محاذاة الجدران، أو صفير شاب أرعن، ينقّل قدميه على الحجارة البارزة في مجاري المياه. ومن البعيد ينساب صوت المذياع في ترتيلة ساجية من آيات القرآن الكريم، كما لو أنه صادر من العالم الآخر. في كل مساء كان هذا الصوت البعيد يقترن بالمرحلة الأخيرة من متاعب اليوم في وجود أسعد. فكان يصغي إليه في حنين مفعم بالنشوة، ويحس عزاء غامضاً، لا سبيل إلى التعبير عنه، ولا لزوم له أيضاً؛ فقد كان أسعد عاجزاً عن الشكوى أمام المتاعب، والأرجح أنه كان يستمتع بها إلى الحد الذي دفعه إلى أن يقول ذات مرة عن الكسالى والمترفين: "المساكين الذين قدر الله عليهم هذا العذاب!". والغريب أنه كان يعرِّف هذا "العذاب" بأنه الراحة والثراء. كان يشعر ـ حين يسمع القرآن ـ بأن هناك أمكنة أخرى في المدينة تزخر بأضواء

الكهرباء، وأصوات المذياع، والثياب الناعمة النظيفة، ولكن من ورائها جميعاً سكينة النجوم، التي تلتمع في السماء الصافية، وشطآن الجنة البعيدة... هناك السعادة التي لا تتغير ولا تزول.

وفي هذا المساء، كان مستغرقاً في شعور من هذا القبيل، حين مرَّ به حارس الحي، وأطلق عليه، في عتمة الزقاق، حزمة من ضوء المصباح اليدوي، وقال له بلهجة لا تخلو من الحنق:

ـ أهذا أنت يا أسعد؟ لقد قضي عليك هذا المساء!

ولم يفهم أسعد ماذا كان يعني الحارس، على الرغم من أنه أدرك أن هناك مشكلة خطيرة؛ فقال له، وهو ينفض عن ثيابه غبار الطحين:

ـ وماذا فعلت؟

فأجابه الحارس في غضب صارم ينسجم مع شاربيه العريضين ـ وهما من تقاليد الحراسة ـ وتقطيب وجهه المخدَّد:

ـ إذن أنت الذي تقتلع مسامير الحكومة؟

وقبل أن يستفهم أسعد عن الحكومة والمسامير أردف الحارس:

ـ ولا تكتفي بهذا، بل تجرؤ على تحقيرها بربط هذا الحمار اللعين!

وصاح أسعد كمن يصحو من كبوة:

ـ ها... صحيح... صحيح... ولكنني نسيت...

فقال الحارس وهو يقترب منه:

ـ الحكومة لا تنسى!

وسار به إلى المخفر دون ضوضاء. وحرصاً على أن تحضر كل عناصر الجريمة، أخذ الحمار أيضاً. وكان المخفر بناءً عتيقاً، نبت العشب البري على جدرانه الواطئة. ولم تكن تميزه عن البيوت المجاورة، إلا سارية العلم.

حتى اللافتة الرسمية فوق الباب، كان يغطيها الغبار. وكان في المخفر شرطي عجوز تفهَّم القضية في

سرعة خارقة، وحكم على أسعد بالسجن الاحتياطي، إلى أجل غير مسمى. فنقل إلى السجن. ولما كان مذنباً ـ كما قيل له ـ فإنه لم يعترض، بل أبدى ملاحظة مهذبة على مصير الحمار المسكين، وقال في نفسه من فرط السذاجة: "ليس في البلد سجن للحمير!". ومن حسن الحظ أن الوقت كان ربيعاً. فربطوا الحمار في ساحة السجن؛ وقضى الليل وهو ينعم بحراسة لم يعرفها أي حيوان من قبل.

2

كانت قاعة السجن أشبه بالفناء الداخلي الكبير في حمام المدينة؛ هذا ما خيّل لأسعد، حين وجد نفسه مستلقياً على حصير مهترئة، فوق العتبة الحجرية. وكان المساجين يضطجعون في كل الأنحاء، كما يفعل المستحمون قبل ارتداء الثياب. ولكن القذارة كانت تحتل كل ذرة من هواء المكان؛ وهذا هو أيضاً شعور أسعد، فقد أحسّ أن كل شيء في هذه القاعة معطوب

فاسد، حتى إنه بدا لنفسه ـ وهو كتلة من الثياب الرثة والغبار ــ وكأنه البقية الطاهرة الوحيدة من العالم النظيف، عالم "خارج السجن".

وكانت القاعدة مغمورة بضوء شاحب مترجرج، يصدر عن فانوس زجاجي، علق في إحدى زوايا السقف الخشبي. وعلى هذا الضوء رأى أسعد وجوه الكثير من المساجين، وقد تراءت تحت العصائب الرقطاء، وكأنها وجوه مرضى في النزع الأخير. كانت العيون مغمضة، ولكن الملامح كانت في يقظة مفعمة بالحياة. والتفت أسعد إلى جاره ــ ولابد من أن يكون له جار في هذا المكان الآهل ــ فرآه شيخاً أشيب الشعر، غائر الوجنتين، كانت عيناه الصغيرتان مفتوحتين في صفاء ليس له مثيل: كانتا تحدقان بأخشاب السقف العتيقة. وتذكر أسعد في هذه اللحظة أن الشيوخ لا ينامون إلا قبيل الفجر.

وهمس الشيخ، وقد شعر بأن أسعد كان يراقبه:

ـ جديد؟

فقال أسعد بصوت مرتفع، أثار انتباه اثنين أو ثلاثة من المساجين:

ـ نعم. أتيت هذه الساعة؟ هل تنامون الآن؟

فقال الشيخ، وهو يضع يده على شفتيه مشيراً بالتزام السكوت:

ـ وماذا تراهم يفعلون؟ بعد العشاء يمنع الضجيج. هل قتلت أحداً؟

فابتسم أسعد في طمأنينة، وهمس، وعيناه تحدقان في وجه الرجل:

ـ لا. الحمار اللعين يقتلع مسامير الماء، وأنا أسجن من أجله.

قال الشيخ، وقد بدا عليه أنه فهم خطأً ماذا كان يعني جاره الجديد:

ـ كلهم حمير! مجرد أنهم يحملون عصا الحراسة، يصبحون في أمان. لماذا لم تخبرهم بالحقيقة في المخفر؟

وأدرك أسعد، على الرغم من افتقاره إلى سرعة الخاطر، أن هناك التباساً في ذهن الرجل، فصحح ذلك بقوله:

ـ لا أعني أحداً، بل حماري المسكين.. منذ شهر وضعوا هذه المسامير، حيث يحفرون الأرض من أجل أنابيب الماء.. ونسيت أنهم يعاقبون من يمسها، ولكن هذا ما حدث على كل حال.

فصدرت عن الرجل ضحكة مكتومة، وقال، وهو يسحب على صدره عباءة قديمة:

ـ هل بدؤوا ينقلون الماء إلى الحي؟ كل شيء يتحسن حين يغيب الإنسان عن بيته.

وصمت فترة، وهو يتأمل وجه أسعد، ثم أردف:

ـ تسع سنوات! تصور كيف مضى هذا العمر الطويل، وأنا بين الجدران العفنة، لا أعرف ماذا يحدث في الدنيا.

وقال أسعد، وقد انقبض صدره فجأة:

ـ تسع سنوات، وأنت في السجن؟ وماذا فعلت؟

فأجاب الرجل في شيء من عدم الاكتراث:

ـ هذا لا يهم.. قتلت امرأة... لا تستحق يوماً واحداً من هذا العمر. ولكن ما دام الله قد أراد، فلا بد من هذا. ولكنني أقول لك: حاول أن تخرج بسرعة. أنكر أنك فعلت شيئاً. إذا استطاعوا أن يعوِّدوك على الحياة هنا، فإنه يصعب عليك الخروج. الأيام تمضي بسرعة عجيبة حين تسير على نمط واحد. وترى أنه ليس لك إلا أن تفكر بالله. سوف أخرج بعد ستة أعوام، ولكنني أتمنى أن تصبح اثنتي عشرة، على أن أنال المغفرة منه، سبحانه وتعالى.

وتغيرت لهجته فجأة، وانطلقت من شفتيه ضحكة عصبية نابية، وهو يردد:

ـ اثنتا عشرة سنة! دزينة كاملة من أعوام العمر!

وتلفت حوله في قلق، ثم لزم الصمت، ولم يخطر لأسعد أن يسأله المزيد، فغطى رأسه بطرف سترته، وأسلم عينيه لغفوة الظلام.

ولكنه لم يستطع الرقاد، لم يكن منفعلاً كما تقتضيه الليلة الأولى في سجن شاب هادئ مثله، بل إن حديث جاره أثار في نفسه تساؤلاً قلقاً عما يمكن أن يحدث، لو أجبر على البقاء أعواماً في هذا المكان. لم يكن ذلك معقولاً في نظره، ولكنه كان ممكناً. فالمعقول أن لا يتجاوز الحبس أسبوعاً أو أسبوعين، ولكن مجرد إيمانه بأن الحكومة تفعل ما لا ينبغي أن يفهم، مسح عن جفنيه كل رغبة في الرقاد. ودون أن يفكر بما يفعل، رأى نفسه يزحف بجسمه إلى جاره الشيخ ويهمس:

ـ هل نمت؟

فالتفت إليه الرجل، وهو يزيح العباءة عن رأسه، وأردف أسعد:

ـ كيف قتلتها ياعم؟

فلم يفاجأ الشيخ بهذا السؤال، بل أجاب في هدوء غريب:

ـ كما تقتل النساء عادة: الخنق باليدين. أغمض عينيك يا بني، يجب أن تنام! سوف يأخذونك إلى التحقيق قبل الفجر.

ثم سكت هنيهة قصيرة، وأردف في انتقال طارئ:

ـ ولكن... لا... اسمع! ما دام من الممكن أن تخرج، فقد يأخذونك قبل الفجر، ولا بد من أن تؤدي لي هذه الخدمة، وقد لا نستطيع الحديث بعد الآن، فهل تفعل؟

وحين أبدى أسعد حرصه على هذه الخدمة، حدثه العجوز في همسات محمومة عن قصة طويلة، لم يفهم منها أسعد إلا أنه طلب إليه أن يزور شاباً اسمه "نعمة"، ويحاول إقناعه بزيارة أبيه في السجن، وأن نعمة هذا هو الابن الأكبر للعجوز ، ولكنه كان حانقاً عليه حين سجن، وكان الأب المسكين في عذاب شديد، لأنه لم يزره منذ سنوات.

وقال أسعد:

ـ وأين أستطيع أن أراه؟

فأجاب الشيخ في حنان:

ـ في السوق... الدكان الوحيد الذي يبيع الكتب.. إنه يقرأ ويكتب أفضل من جميع المأمورين في الحكومة.. ابني الحبيب! لا تنس أن تقول له إنني أموت هنا.

واخضلت عيناه بالدموع، فصمت قليلاً، ثم همس بصوت مرتعش:

ـ إذا رأيته مصمماً على العناد، فتوسل إليه أن يرسل صورته على الأقل.

3

لم تكذب فراسة السجين العجوز، فأطلق سراح أسعد قبل أن تطلع الشمس. وقال له الحارس، حين رآه في أول الزقاق:

ـ انتبه يا أسعد! لقد عفوا عنك هذه المرة، لأن المسمار بقي في مكانه، وفي المرة القادمة سوف يشنقونك في الحال!

ولكن أسعد كان عاجزاً عن الانتباه إلى مثل هذا التحذير، فقد كان الشوق إلى ليلى ـ وهو اسم خطيبته ـ يعتمل في نفسه، كما لو أنه غاب عنها عدة أسابيع. واستقبلته على عتبة الباب بتحية الصباح، دون أن يبدو عليها الاهتمام، ولولا الحياء المتكلف، الذي كان يرهق عينيها بالالتفات إلى الداخل والإغضاء، لما كان في مظهرها ما يدل على أنها أمام رفيق العمر. ولكن أسعد لم يكترث بهذا كله، فلو أنها شتمته في هذه اللحظة، وأغلقت الباب في وجهه، لما خامره الشك في أنها تفعل ذلك عن أصدق الحب. ومن حسن الحظ أن أمها خرجت على الفور. وكانت امرأة بدينة رمادية الشعر، ترتدي ثوباً عتيقاً من الكتان، ينحسر عن نحرها الممتلئ العريض. وكانت يداها مبتلتين، ومع هذا فقد حرص أسعد على أن يقبل رسغها في احترام، حفزها على الإسراع في سؤاله عن صحته وأحواله، وحادثة السجن. ولا ريب أنها انتشرت في كل مكان. فقال أسعد، وهو يحس شيئاً من المرارة:

ـ هذا ما حدث، كان الظلام شديداً، فلم أعرف أين ربطت الحمار.

وضحكت ليلى، وهي تلتفت إلى أمها. وفي هذه البرهة، خرجت فتاة نحيلة ذات شعر أصهب، ووجه صارم التقاطيع، يبرز فيه أنف دقيق طويل، كأنه صيحة احتجاج أمام الجميع. وحياها أسعد في شيء من الإغضاء، فقد كانت أطراف ثوبها مرفوعة إلى ما فوق الركبتين، مما يدل على أنها كانت تنظف البيت، أو تغسل الثياب. ولم ترد التحية، بل أومأت إلى ليلى، وهي تلتفت إلى الداخل، ثم دارت على عقبيها بحركة آلية، وغابت في المنزل من جديد، فلحقت بها ليلى. وقال أسعد، وهو يراقب بعينيه قدمي فتاته العاريتين، وهما تجتازان عتبة الباب الداخلي:

ـ يجب أن أذهب الآن.

كان راغباً في البقاء، ولكن الحياء والارتباك كانا قد أخذا منه كل شيء، وكان من الممكن أن

يعــود إلى هدوئــه، لــو أن المــرأة حاولــت أن تســتبقيه. ولكنها لم تفعل، بل بدا في عينيها الصامتتين شيء من عدم الاكتراث. فرجع أسعد، والحسرات المبهمة تطوق مشاعره جميعاً.

ذلــك هــو الجانــب الحــزين في طبيعــة الشــاب المسكين، فمنذ أن يتصل بالآخرين، صلة الحاجة، كان يشعر بالهوان والذل. ولم يكن قادراً على التمييز بين حاجة وأخرى. فالعاطفة التي تدفعه إلى بيت ليلى لا تختلف في نظره عن أية مصلحة مادية يمكن أن تأسره، حين يطلب أجرته من أحد، أو يريد اقتراض المال. ومن ثم كانت الإهانة الذاتية تجرحه، كلما اضطر إلى أن يتوجه إلى الآخرين، في ظروف مماثلة، كما لو أنه يقول لنفسه: "ما دمت لا تستطيع الاكتفاء بما لديك، فأنت جدير بالرثاء".

ولم تتبدد أحزانه إلا حين بلغ الطاحون، واندمجت حواسه في حجرة حجر الرحى الدائرة، وصوتها الرتيب، ورائحة الروث والهشيم المكوم في جوانب المكان. عندئذ

بـدأت ليلـى تغـزو خيالـه المحـدود بأنوثتهـا الناعمـة، وساقيها الغضَّتين.

ولم يكـن مـن عـادة أسـعد أن يضـجر مـن سـاعات الطـاحون، مهمـا تكـن مترعـة بالعطالـة والفـراغ. كانـت في الغالـب تأخـذ النهـار بطولـه. وكـان عمـل الطـاحون ينتهي قبل الظهر بزمن طويل، ولكن أسعد كان يؤجل العـودة إلى المدينـة إلى وقـت الغـروب. وقـد حـدث مـرة أو مرتين أن عاد عند الظهر، فلم يجد مـا يفعلـه في المدينـة، كمـا أن أهـالي الحـي ارتـابوا في هـذه السـرعة، واتهمـوه بعدم الاهتمام؛ ومن ثم لم يعد يرجـع إلا في نهاية النهـار. ولكن ماذا كان يفعل في ساعات الفراغ؟

كان يستمتع بالأرض والأشجار والعصافير. هـذا مـا كان يضطره إليه صاحب الطـاحون، وهـو شـيخ عجـوز، أبيض اللحية، أزرق العينين، عـرف بالسـخرية والميـل إلى المـرح، يرجعـون ذلـك إلى إدمانـه علـى الخمـر وصـحته الجيدة. والواقع أن أسعد كان يأخذ عنه أشياء كثيرة، منها الكسل والاهتمام بهذه "الكائنات التي لا يلتفتون

إليها إلا حين يستفيدون منها، مع أنها أطيب أصدقاء الإنسان". تلك هي عبارته، ويعني بهذه الكائنات كل ما يوجد على الأرض، ولا يستطيع الشعور أو التفكير، بما في ذلك الأرض نفسها، ذات التراب والحجارة والمياه الجارية في كل مكان.

في هذا الصباح حدثه أسعد عن مغامرة السجن، وحين أتى على ذكر الرجل، الذي قتل امرأة، وبكى من أجل ابنه الحانق، صاح الشيخ الأشيب في بهجة عارمة:

ـ إنه الحاج مراد! أعرفه جيداً. عليه لعنة الله!

ـ مسكين! كم يبعث الشفقة، لقد أحزنتني دموعه الـ...

فقاطعه الشيخ في قهقهة صارخة، وهو يقول:

ـ دموع العجائز كلها أكاذيب يا أسعد، حتى عندما يبكون، فإنهم لا يبكون إلا من أجل نفوسهم، أتعرف من هو الحاج مراد؟

وقبل أن يرد أسعد بكلمة، تابع الشيخ حديثه، وهو ما يزال يضحك:

ـ أعرفه كما أعرف أصابع يدي، ذهبنا معاً إلى الحج، ليس من أجل الفريضة، بل لكي نؤدب أبناء ديننا المسلمين. كانت أيام فتنة واضطراب.

ولكن الخبيث لم يحارب أحداً، بل سطا على الحجاج، وملأ كيسه بالليرات الذهبية، واغتصب لقب الحاج أيضاً. ولكن الله انتقم منه... سوف أروي لك قصته ذات يوم، مع أنه أحقر من أن يذكر على اللسان.

فهز أسعد رأسه في هدوء، دون أن يبدو عليه الفضول. كان شبه مضجع على كومة من الهشيم الأصفر، غير بعد عن رحى الطاحون، وقد ارتاحت على ركبته قطة رمادية، ذات ناصية بيضاء، وعينين صافيتين بلون العسل النقي. وقال عبد الخالق ـ وهو اسم زميله الشيخ ـ وهو ينظر إلى كوة عالية في الجدار، تتحرك فيها حزمة كابية من ضوء الشمس، ممتلئة بذرات الغبار الأثيرية:

ـ يظهر أن الغيوم عادت من جديد، وما دام الجو دافئاً إلى هذا الحد، فالأمطار قريبة، ولهذا لم يأت هؤلاء الأوغاد (كان يشير إلى أشخاص معينين اعتادوا ارتياد المكان).

والتفت أسعد إلى فتحة الباب، حيث تبدو جذوع الأشجار القريبة بقشورها الغليظة، وتنبسط من ورائها خضرة البساتين في إشراق عذب، تنبض فيه حياة الطبيعة في كل ورقة وعشبة، وقال:

ـ لا أعرف لماذا تميل إليهم يا عبد الخالق، وتؤويهم في هذا المكان. فضحك عبد الخالق، وقال بلهجة تدل على عدم اهتمامه بهذا الرأي:

ـ وماذا يفعلون؟ إنني أحب هذا النوع من الشباب الجريء.

فقال أسعد:

ـ ولكنهم يشربون العرق، ويلعبون القمار، وما يزالون أولاداً! ماذا يصبحون عندما يكبرون؟

فأجاب الرجل، وهو ينهض في حركة آلية، اعتادها كلما أراد إيقاف الرحى عن الدوران:

ـ هذا أفضل ما فيهم يا بني! إذا لم يفعلوا الآن هذه الأمور، فإنهم يضيّعون فرصة الشباب؛ وأنت ترى أنني عجوز يؤذيني العرق حتى العظام، ومع ذلك لا أنام إلا سكران؛ وهم فتيان يتحملون الشرب طوال النهار، فلماذا لا يشربون؟ أما القمار فهو تسلية جميلة، عدا أنه يكشف عن شجاعة الإنسان، وتعلقه بالشرف. تصور أنك تتخلى عن مالك، لمجرد أنك عاهدت على أن تتقيد بأصول اللعب. إنها كلمة شرف!

وتوقف هدير الرحى، فأعقبه طنين ناعم يتموج في هدوء، كما لو أنه صادر عن حركة الغبار، أو رفيف الهوام الصغيرة وهي تسبح في الفضاء.

وتابع عبد الخالق كلامه، وهو يرتمي بجسمه الممتلئ على الهشيم قرب أسعد:

ـ العاقل يا بني يفعل ما يشتهي، على أن لا يؤذي أحداً، هذا هو المهم. لو كان لي أولاد، ولم يأتوني ولله

الحمد، لتركتهم يعيشون مثل العصافير، ينتقلون كما يشاؤون، وينقرون كل شيء.

وتعالت من البساتين هبة عاصفة من الرياح، يملؤها حفيف الشجر بضوضاء تتكسر فيها الأصوات المبهمة. وانفتح الباب في شدة حتى نهايته.

فقال عبد الخالق، وعيناه تتألقان بفرحة صريحة:

ـ ألم أقل لك؟ ألم أقل لك؟ المطر قريب. إنني أفهم هذه الأشياء كأنني في قلبها! الغيوم، والرياح، والأشجار، حتى نجوم السماء في الليل، أعرف كيف تتحرك، وأين تنظر. أوه.. ليتنا نفهم اللغة التي تتخاطب بها جميع هذه الكائنات! ماذا تقول المياه الجارية للهواء، وكيف تودع الشمس أعشاب التلال؟ أحياناً أقول لنفسي ليتني كنت شيئاً مثلها.

فنظر إليه أسعد في تساؤل غبي، يدل على أنه لم يكن قادراً على استيعاب هذه المشاعر، ولزم الصمت. فقال الرجل:

ـ هل تستغرب هذا؟ تصور يا بني أننا سوف نموت يوماً، نتفسَّخ في تراب الأرض الأسود، وتبقى بعدنا جميع هذه الأشياء، كما هي جميلة، حية، تتحدث في هدوء بلغتها العجيبة.

وهيمنت عليهما فترة من الصمت، بدا خلالها أسعد وكأنه يوشك أن ينام. كان مغمض العينين، مستسلماً لما يمكن أن تبعثه راحة الجسد الكسول من نشوة في الجوارح. وقال وما يزال في شبه إغفاءة:

ـ لتفعل ما تريد بعدنا (كان يعني أشياء الطبيعة)، ما دامت ليلى سوف تنام معنا في الليالي الباردة.

4

استمر الجو غائماً عاصف الرياح حتى الأصيل. فاضطر عبد الخالق إلى ارتشاف جرعات من العرق الحاد في وقت مبكر. وكان عمل الطاحون قد انتهى منذ الظهيرة. وعزم أسعد على العودة قبل المساء، وقد

خطر له أن يزور "نعمة" وفاءً بوعده للشيخ السجين. ولم يكن حريصاً على أن يعرف المزيد عن هذه القصة، ولكنه وجد نفسه مرغماً على تتبع الحديث المنفعل، الذي انساق فيه زميله العجوز، بعد أن ألهبت الخمرة خياله الجامح. كان يقول:

ـ أنتم الشباب لا تعرفون كيف يكون الإنسان نذلاً. إنكم تتصورون البراءة والطيبة في كل مكان، وهذا هو عيبكم. لا بل هناك عيب أكبر، هو أنكم لا تعرفون شيئاً عن نفوسكم. وفي اعتقادي أنكم أكثر نذالة من الجميع. ماذا تريد يا أسعد؟ إنك تحلم الآن بجسد ليلى (الواقع أنه ذكر هنا كلمة بذيئة). هل خطر لك مرة أن ليلى إنسان مثلك؟ لا! أجيب عنك، لأنك وغد لا تفهم شيئاً.

وقهقه في عبث، بدد كل أثر يمكن أن تحدثه هذه الشتيمة في نفس زميله الشاب. والواقع أن أسعد كان أكثر بلادة من أن تؤثر فيه مثل هذه الكلمات، فقد ضحك في مرح شديد، وهو يكرر:

ـ لا أفهم شيئاً. هذا هو الصحيح يا عم عبد الخالق.

واستطرد عبد الخالق، وقد أصبحت وجنتاه بلون النار:

ـ هل تعرف من هو "نعمة"؟ "نعمة"... ابن الحاج مراد؟

وابتلع جرعة من العرق، وقال، وهو يمسح شفتيه بمنديله الأزرق:

ـ نعمة هو الابن الرابع لهذا الأب الشرير. ولكنه الوحيد الذي بقي على قيد الحياة. تصور ثلاثة أولاد يموتون وهم أطفال. كان الحاج مراد ـ لعنه الله ـ رجلاً فاسداً، وقد خطر له مرة أن يتزوج، مع أنه يقضي لياليه كلها في بيت الدعارة، فاختار أجمل امرأة يمكن أن تقع عليها عين إنسان. رآها في أيام الحصاد، وكان أخوها قد دعاه إلى صيد الحجل.

لقد حدثني عن هذا كله في طريقنا إلى البيت الحرام. رآها تحلب البقرة لكي تقدم له إفطار الصباح، وكانت قد حسرت الثوب عن ساقيها حتى الفخذين،

فاشتهاها. ماذا يفعل الكلب غير أن يشتهي؟ وطلبها للزواج. وكانت المسكينة قد سئمت حياة الفلاحين، فلم ترفض طلبه. وبعد يومين جاء بها إلى المدينة، جاء بها بعد أن أصبحت ملكاً له. لم ينتظر اللعين وصولهما إلى البيت، بل استولى عليها في الطريق بين حقول الذرة النامية ولكنه، مع هذا، أبرع صيادي الحجل في هذه المنطقة. إنني أعرفه جيداً. طوال حياته لا يضرب الحجل إلا وهو في الفضاء، ولا يصيد واحداً، بل ثلاثة أو أربعة بطلقة واحدة، يشكها بالبارودة كما يشك اللحم في السيخ.

وتوقف فترة من أجل جرعة الخمر، ثم أردف:

ـ كان ماهراً في كل شيء، ولكنه كان متسرعاً أيضاً إلى حد الجنون. وصل إلى المدينة عند العصر مع عروسه الجميلة، وفي المساء أقام عرساً لم يعرف الحي مثله منذ أجيال: الطبول والزمور والرقص الخليع. إحدى البنات بقيت تفتل حتى الفجر، ورأى الجميع صدرها

العريان وساقيها. وكان مراد يضرب على العود ويغني وهو سكران. لم نكن نعرف أن صوته جميل ساحر، وأنه يضرب على العود بمثل هذه البراعة. تعلم ذلك في المواخير، خزاه الله! ولكنه أطربنا جميعاً. كانت ليلة لا تنسى. وقد فعل الشيء نفسه عندما ولد نعمة ابنه الأول؛ بل كانت الحفلة أكثر روعة، فقد حضرها جيش من الفلاحين... أخوال الوليد، ودوخوا الحي بالدبكة والطبل. ولم يكتف مراد بهذا، بل وزعهم على البيوت عند نهاية الحفلة، لكي يبيتوا عندنا هذه الليلة المشهودة. وفي العام نفسه ذهب إلى الجندية.

كنا في "قرعة" واحدة. أخذونا معاً. وهناك تعلم الخبيث خفة اليد، فأصبح يسرق كل شيء. لا أظن أن في الدنيا شخصاً مثله يفهم أصول النشل. حتى الضباط كان يسرقهم أثناء التمرين، دون أن يشعروا! ولكن هذا شيء آخر، لقد كان في الوقت نفسه أكثر الجنود طاعة وشجاعة. كان من الممكن أن يصبح ضابطاً علينا، لولا أنه كان يفضل أن يسكر.

وعلى هذا النحو روى عبد الخالق، بين الضحكات المفاجئة، وجرعات الخمر، كل ذكرياته عن صديقه القديم. وأهم ما في هذه الذكريات أن هذا الرجل العجيب عاد من الجندية، ومعه امرأة مشبوهة، ومال وفير. وادعى أنه اضطر إلى الزواج في هذه الغربة الطويلة، لئلا يفعل ما لا يرضى عنه الله.

وكانت المرأة على جانب من الدمامة والهزال يبعث النفور. ولكنها كانت ترتدي الثياب القصيرة، وتضع المساحيق في تفنن جعلها قبلة أنظار الرجال في الحي. وإنصافاً لتاريخ التطور يذكر أنها هي التي أدخلت حمرة الشفاه إلى هذا الحي القذر. وتبين بعد ذلك أنها جاءت من إحدى دور البغاء، وذلك ما أعلنه مراد نفسه في إحدى حالات السكر، وأردف: "لِمَ يكذب الإنسان على نفسه؟ الرجل يقتني امرأتين، إحداهما للطبخ والولد، والثانية للشرب والفراش".

ونقلت هذه الكلمات إلى زوجته الأولى، وكانت في شقاء لا سبيل إلى احتماله. ويقال أنها أصبحت عاجزة

عن المشي، منذ أن حلت بها هذه الكارثة، ولكنها كانت ترفض مغادرة المنزل، على الرغم من إلحاح ذويها، الذين لجؤوا إلى جميع الوسائل ـ بما فيها التهديد بالقتل ـ لردع مراد، ولكن عبثاً.

غير أنها، حين سمعت ما قال زوجها السكير، حزمت أمتعتها وذهبت إلى القرية، وفي صحبتها الولد الصغير. وكان نعمة قد تجاوز الرابعة. وفي أحد الأيام ردد الناس في المدينة وجميع القرى المجاورة أن مراداً أصبح في السجن، لأنه قتل "سنية"، وهو اسم زوجته الثانية. وكان الرأي السائد أنه لم يقم طوال حياته بعمل شريف مثل هذا العمل، غسل عاره كما يقولون، فقد اكتشف ذات ليلة ـ وقد تكون الليلة الوحيدة التي عاد فيها إلى المنزل غير سكران ـ أن سنية رجعت إلى طبعها القديم، فخنقها في سكون، وذهب إلى المخفر.

توافرت جميع هذه المعلومات لأسعد الوراق وهو شبه نائم. ولم يتحرك خياله إلا لكي يستعيد جدران السجن، في صورة مبهمة، والشعرات البيضاء المترعرعة

في وجه السجين العجوز، وهو يسحب الغطاء على وجهه. واكتفى بهذا المقدار من التفكير في هذه القضية، ولم يجد في مشروع زيارته لنعمة ـ وفاءً بالوعد ـ ما يدعو إلى الاستعجال. وقال، وهو يشبك راحتيه تحت رأسه، ويغمض عينيه:

ـ متاعب الناس لا تنتهي! لا شيء أفضل من النوم!

ولم يفق إلا عند الغروب، فوجد ساحة الطاحون تصخب بالحركة والضوضاء. وكان عبد الخالق يتكئ على جذع شجرة مقطوعة، وهو يراقب أربعة من الفتيان تحلقوا حول بساط صغير، يلعبون في لغب وبهجة. وهو ينقل عينيه بين الوجوه المنفعلة والأنامل الغضة، التي تعبث بأكوام النقود الصغيرة. وكانت السعادة تغمره كلما احتكموا إليه في التباس يعترضهم أثناء اللعب. وما أكثر ما كانوا يطلبون إليه التدخل، ولا سيما أن أبسط خلاف بينهم كان ينذر بالشجار، وهو أمر طبيعي، فإلى جانب الانفعال الفتي والغرور الجامح، كان الحرص على المال يجعل من المقامرة صراعاً جدياً.

فقد كانوا جميعاً فقراء وأولاد فقراء، ولا يعلم إلا الله كيف حصل كل منهم على هذا الرصيد الضئيل، الذي يتيح له الاشتراك في اللعب.

ولكن روح المغامرة تصنع كل شيء؛ وهي التي جعلت عبد الخالق حريصاً على تشجيعهم، دون أن يكترث بما يعنيه هذا التشجيع من ضروب الإفساد. بل إنه استطاع في أشهر قليلة، أن يغري بعضهم بشرب الخمر. وكم تمايلت جدران الطاحون في عيونهم المنطفئة، ودارت الرحى الهادرة في رؤوسهم، وهم يرتمون سكارى على الهشيم الأصفر. إنها لحظات العمر السعيدة في نهار عبد الخالق. وكان، من شدة المرح، يربط بأرجلهم قطة غافية، أو جرواً صغيراً لم يتقن النباح بعد. وحين جاء أسعد أصبح حماره البطل الأول في هذا المزاح العابث.

5

في أقل من شهر سجن أسعد للمرة الثانية. وكانت القضية في هذه المرة أكثر وضوحاً وأشد خطورة، حادثة قتل شنيعة في وضح النهار. في أحد أيام السبت الهادئة بكّر أسعد إلى الطاحون، وذهنه مثقل بالذكريات الجميلة التي أمده بها يوم العطلة. وكان من عادته أن يقضي هذا اليوم في منزل خطيبته، سعيداً بالخدمات الكثيرة التي اعتاد أن يؤديها للأسرة. من شراء الخبز والخضار، إلى إصلاح المقاعد القديمة ومصاريع النوافذ.

ولقيه عبد الخالق بمرحه الصباحي المعهود، وبادره هذا اليوم بقصة مسهبة عن أحداث اليوم الماضي: كيف دعي إلى وليمة في أحد البساتين، ولم تفرغ الكؤوس إلا بعد منتصف الليل؛ وأردف قائلاً:

ـ ولكن الغريب يا أسعد أنني حين وصلت إلى الطاحون، رأيت قطيعاً من الكلاب يحتشد هنا، كما

لو أنه اجتماع على مزبلة. كان ذلك عند صياح الديك، ولولا العصا لما استطعت النوم ساعة. ولكن... انظر! بعضها ما يزال هناك!

وأشار صوب البساتين، فالتفت أسعد دون اكتراث، فرأى ثلاثة أو أربعة من الكلاب الضخمة، تجثم بين جذوع الأشجار، وترقب الطاحون بعيون حذرة. وكان الجو حاراً، وسكون الصيف الثقيل يطبق على كل ناحية. وخلال هذا السكون، فوجئت حواس عبد الخالق بحركة غير عادية في تجمع الذباب وطنينه العابث غير بعيد عن أرض الطاحون. وقال، وعيناه تحدقان في مكان ما من الأرض:

ـ أشم رائحة شيء يا أسعد، لا بد أن أمراً ما قد حدث هنا.

ولو أن إنساناً يملك مقدرة خارقة على التنبؤ لما استطاع أن يتبصر هذا الموقف الغريب: ففي لحظة خاطفة تغضنت جبهة عبد الخالق، وقفز في تصميم

جامح إلى ركن من البستان الممتد أمام الطاحون، وجعل يحفر تراب الأرض بيديه، كما لو أنه يريد أن يغرس شجرة. وصاح بأسعد، ويداه تتحركان في التراب بانفعال شديد:

ـ ألم أقل لك؟ ألم أقل لك؟ لقد شممت رطوبة التراب في هذا المكان؛ انظر! شيء مدفون هنا.. شيء مدفون!

وهرع إليه أسعد، وهو يضحك قائلاً في استهزاء صبياني:

ـ إنه الكنز الذي تركه لك جدك المرحوم.

وقبل أن تستقر هذه الكلمات في سمع العجوز، ارتفعت يده الملوثة، وقد علقت بها سترة معفرة بالتراب، فقذف بها جانباً، ثم أوغل في حفر الأرض. ولم تمض هنيهة حتى توقف وقد شحب وجهه، والتفت إلى أسعد، في نظرة ذعر غير متوقعة من رجل في مثل هذا السن المجربة. وصرخ أسعد، وهو يحدق في الحفرة:

ـ قتيل!

واستعاد عبد الخالق قليلاً من الهدوء، ثم نهض وقد ارتسم على وجهه نوع من الاشمئزاز لا سبيل إلى وصفه. ولم يبد على أسعد أنه كان يشارك الرجل في شيء من هذا الانفعال المزعج، بل إنه انحنى على الحفرة في فضول كمن يريد أن يتبين وجه القتيل. ومد ذراعيه دون وجل، وجعل يزيح التراب عن الجثة. وكان عبد الخالق في هذه الأثناء قد دخل الطاحون، وعاد مرتدياً سترته، وقال لأسعد، ووجهه في شحوب حزين:

ـ إنني ذاهب إلى المدينة. يجب أن نخبر أحداً بهذا الحادث الشنيع. لا تفعل شيئاً في غيابي. هل تسمع؟

فنهض أسعد دون أن يقول كلمة؛ بينما كان الرجل العجوز يقفز على ظهر الحمار وينطلق بين البساتين. ولم تمض ساعة حتى كان رجال الشرطة يطوقون المكان، ويحملون الجثة على نقالة قديمة. مشى وراءها أسعد، وهو يحاول عبثاً أن يخفي يديه، وقد استقرتا معاً في القيد الحديدي الثقيل.

ولم يكن أسهل من أن تفسر الأمور. شخص وجد مذبوحاً عند الطاحون، وإلى جانبه رجل عرفه السجن مرة، يحاول إخفاء جريمته. وسئل أسعد مراراً عن تفاصيل الحادثة، فابتسم في بلاهة، وهو يقول: "هذا ما قدره علي الله". كان يعني الذهاب خطأ إلى السجن، وكانوا يفهمون قتل الشخص المجهول. وفي هذه المرة قضى في السجن ثمانية أيام ــ كما أحصاها ــ دون أن يدعى إلى التحقيق، أو يزوره أحد من معارفه القلائل. حتى خطيبته المسكينة، كما تصورها أن تكون حين تسمع بمحنته، لم تأت لرؤيته ولم ترسل أحداً من ذويها. وهذا أيضاً مما توقعه خيال أسعد. والغريب أنه لم يتساءل، حتى بينه وبين نفسه، عن حقيقة الجريمة التي سجن من أجلها، بل هيمن عليه شعور عميق بأن ما حدث هو ما ينبغي أن يحدث، لأن الله لا يقدر شيئاً على الإنسان دون حكمة؛ حتى لو كان هذا الإنسان شخصاً تافهاً مثل أسعد الوراق. بل إنه قال في نفسه أكثر من مرة: "إذا كان الله يريد أن يجربني على هذا النحو

المؤلم، فذلك لأنه يهتم بي دون الآخرين. إنه، سبحانه وتعالى، يختار دائماً من يجربهم. لقد أخذ من أيوب أكثر مما أخذ مني... المال والأولاد والصحة، وجعله جثة يأكلها الدود، فبقي النبي الصالح يسبح باسمه، لأنه كان طاهراً بريئاً. فلماذا الحزن والخوف؟".

لم يكن غريباً أن يلجأ خيال أسعد إلى هذا المثال الديني، فقد كانت سير الأنبياء، وقصة عنترة، وبني هلال كل ما في الحي من مصادر الثقافة منذ مئات السنين. ولكن الغريب أن تتسرب الأفكار الدينية إلى ذهنه المحدود، وهو بين هذا الحشد المزدحم من المساجين. صحيح أن بعضهم كانوا يصلون ويقرؤون القرآن، وجميعهم يذكرون الله في كل حين، ولكن القذارة التي كانوا يعيشون فيها، قذارة العيش والكلام والروح، كانت أبعد من أن توحي صفاء العاطفة الدينية. فلا بد أن هذه المشاعر ترجع إلى طبيعة أسعد. وما يدعو إلى الاهتمام بها إلى هذا الحد هو أنها أصبحت شغله الشاغل. فحين رأى أن السجن قد طال،

قال لنفسه: "هل يمكن أن يتخلى الله عني؟ إذا كانت الحكومة تخطئ، فذلك لأنها من البشر، والعصمة لله وحده، ولكنه، جل جلاله، قد تخلى عن يونس أيضاً، ألم يبتلعه الحوت، وكان من الممكن، لا سمح الله، أن لا يخرج من جوفه؟ وعيسى بن مريم؟ لقد ضربت المسامير في يديه ورجليه أمام سمع الله وبصره، فلماذا لم يتدخل من أجله؟".

وأمام هذا التساؤل وثب في ذهنه خيال عبد الخالق وهو يهرب على ظهر الحمار. كيف استطاع هذا السكير العجوز أن ينجو في الوقت المناسب؟ أليس هو الذي ينبغي أن يسجن؟ فهو صاحب الطاحون، والحفرة التي وجدت فيها الجثة هي في ممتلكاته أيضاً. ولا ريب أن الله هو الذي أراد له النجاة. ومن يدري؟ ربما كان هذا لأنه عجوز لا يحتمل السجن، أو لأنه ينبغي أن يكون هناك من يعنى بالحمار، ومن يوفّر الطحين لأبناء الحي الفقراء.

ومع هذه الفكرة المطمئنة نام أسعد في السجن ليلته التاسعة.

6

ما دام أسعد الوراق قد عاد إلى السجن، فقد كان ينبغي أن نشير إلى الحاج مراد، صديقه القديم والواقع أن أسعد قد افتقده منذ أن وجد نفسه في القاعة الكبيرة، وسأل عنه، فقيل له إنه نقل إلى المستشفى، أو إلى أي مكان مماثل، لأنه بدأ يبصق الدم. وحزن أسعد من أجله، وأنَّب نفسه على أن كل هذه الأيام قد مرت دون أن يتصل بابنه "العاق" نعمة، ويحقق بذلك رغبة الشيخ المسكين. وقد امَّحت كل سيئات الأب في ذهن أسعد منذ أن سمع بمرضه، وبدا له الابن نموذجاً شاذاً للعقوق، والغالب أن أسعد فكر بنفسه قليلاً أمام هذه القضية البسيطة، ولا سيما حين تعاقبت عليه الأيام دون أن يهتم به أحد. ولكن طيبة قلبه منعته من اتهام خطيبته، أو أحد من ذويها، بشيء من العقوق أو

الإهمال، بل حرص على أن يعتبر نفسه غير جدير باهتمام الآخرين ما دام في السجن. وفي هذا الحرص شيء من الروح "الأخلاقية" التي تتميز بها طبيعة أسعد من دون ريب. فالسجن للقتلة واللصوص، ومع أنه كان بريئاً، فقد برر للجميع أن يشكّوا في أمره، وذلك من مظاهر التواضع الساذج في روحه. ولم يكن يعنيه في الأمر إلا موقف ليلى، غير أنها ما دامت تحبه ـ وهو مما لا سبيل إلى الشك فيه ـ فسوف تكون براءته مفخرة لها بين الجميع، وسوف تزداد شغفاً بهذا الرجل الذي تحمل الظلم والعناء، دون أن يتخاذل أو يشكو. في هذا المنحى كانت تسير مشاعره وخواطره، ولم تساوره أية فكرة سوداء، في هذا المجال، يمكن أن تبعث في نفسه شيئاً من القلق العاطفي، إلى أن أخذ للتحقيق لأول مرة. كان ذلك بعد انقضاء اليوم الحادي والعشرين على إقامته بين المساجين.

وسألوه عن اسمه وعمره، وعن المرحومين أبيه وأمه، وعن مهنته، ثم وجهوا إليه الاتهام بالقتل عمداً من

أجل السرقة. وعندئذ بلغ به الخوف حد الذعر اليائس، فخرج عن مزاجه الهادئ لأول مرة، وصاح، وهو يرفع يديه مهدداً: "لا! هذا ظلم! لم أقتل أحداً، لم أقتل أحداً".

وكانت صيحته مزيجاً من الهلع والغضب يبعث الضحك حقاً، لولا أن المحققين كانوا في موقف من الحياد الصارم، لا يسمح لهم بأكثر من التثاؤب. وأعيد أسعد إلى السجن، ولم يعرف هل كانت هذه محاكمته الأخيرة، أم أنهم سوف يفسحون له مجالاً آخر للدفاع عن نفسه، أو التوسل بشهود يثبتون براءته، بل إنه، في ذلك الحين، لم يكن قادراً على التفكير في مثل هذه الأمور. كان التخاذل قد شاع في كيانه، وشل كل ما فيه من حيوية، إلا انفعال الغضب الذي حرمه الرقاد تلك الليلة. وقد تجسد هذا الانفعال في صورة محمومة متكررة، وبقيت تدور في نفسه بين الحلم واليقظة حتى الفجر. وكان أسعد يتمثل في هذه الصورة هيكل حيوان مفترس، أرغم على الاختباء في مغارة

قذرة، سددت عليها بنادق، في رؤوسها حراب مسومة، يحملها صيادون ماكرون، وكان الوحش يزمجر وهو يتحفز للهجوم.

وفي الصباح نهض أسعد من فراشه محطم الجسد والروح، ولكن شيئاً من الطمأنينة كان يهيمن على نفسه، ولا سيما أنه استيقظ على صوت أحد.

ـ وهل تزوجت؟

فالتفت إليه والد ليلى، وفي وجهه ضحكة صبيانية صريحة:

ـ لقد حزرت يا أسعد، كان يجب أن تتزوج بعدما أصابها من الهموم.

أليس هذا رأيك أيضاً؟

لأمر ما تغير مزاج أسعد على نحو مفاجئ لا سبيل إلى فهمه، فأجاب، وهو يضحك في مرارة:

ـ نعم. هذا ما يجب أن تفعله.

وقالت الأم، وهي تمسك بيد ابنتها:

ـ هذا هو الكلام الصحيح. عندما يكون الإنسان عاقلاً، تسير جميع الأمور على ما يرام.

وأردف أسعد بعد هنيهة استغراق:

ـ ومن يدري؟ كان من الممكن أن أبقى في السجن شهوراً.

مسكينة ليلى.

وقبل أن يتم كلامه تناولت الأم يده في حنان، ووضعتها في يد الفتاة، التي كانت تنظر إلى الأرض في حياء بريء، وتسربت حمرة الخجل إلى وجه أسعد، وهو يحس حرارة اليد الناعمة، بينما كانت الأم تشير إلى زوجها باستئناف المسير. والتفت الرجل الكهل إلى صهره الجديد، وهو يغمز بعينه في خبث:

ـ ليلى أو أختها، الجميع نساء يا بني!

7

كانت هذه الحادثة من بواعث السخرية والمزاح لدى الكثيرين من أبناء الحي: أن يخطب الرجل فتاةً، ويتزوج أختها. ولولا أن أسعد كان مسكيناً في نظرهم إلى حد التفاهة، لكثرت حوله الأقاويل، ولا سيما أنه كان، لفرط سذاجته، يقدم المزيد من دواعي التهكم. كان يردد مثلاً: أية فتاة عندنا تختار الرجل الذي تريده؟ أليس أهلها هم الذين يزوجونها دائماً؟ وأحياناً يكسرون رقبتها لكي تتزوج شخصاً تكرهه، فلماذا لا يتعرض الرجل مرة لهذا الموقف؟ ولكن أسعد كان يكذب. فالواقع أنه اقتنع، منذ اليوم الأول، بأن أخت ليلى، لا ليلى، هي المرأة التي تليق به: ذلك أنه اشتهاها. وهذا هو الأمر الجوهري. ومن ثم لم يكترث بكل ما يمكن أن يقال. غير أن شائعة واحدة بلغته قبيل الزواج ومسته في الصميم، هي أنه ليس رجلاً. وقد تحركت هذه الشائعة من الأوساط النسائية الماكرة، ولم يكن

في مظهر أسعد، وطيبته المستسلمة، وانطفاء عينيه، إلا ما يثبت هذا الزعم. والمرجح أن شيئاً من الارتياب بنفسه قد ساوره هو أيضاً. ولهذا لازمه الشحوب أيام الزواج وبعدها. ولا يعرف أحد حقيقة الأمر. حتى الفتاة حرصت على الكتمان من هذه الناحية، التي تعتبر من أعمق الأسرار في الحياة الزوجية.

ولكن مما يلفت النظر أن الزوجة الشابة أصبحت منذ الشهر الأول حادة الطباع، تميل إلى الشراسة في جميع تصرفاتها. ومن المحتمل أن حقارة الكوخ، الذي تعيش فيه، هي السبب. فهو أشبه بردهة معتمة، أو مستودع للأثاث المعطوب. وكانت جدرانه ناتئة الحجارة، يغطيها سقف من الصفيح القديم، وقد ألحق به ممر صغير، هو في الوقت نفسه فناء البيت، والمطبخ، ومكان الاغتسال. وكان أسعد يلوم نفسه ـ في سره بالطبع ـ على أنه لم يهيئ لعروسه بيتاً أفضل، ولكنه كان يحدثها دائماً عن المستقبل الرحيب. ومن المناسب أن نذكر هنا أن حلم المستقبل في خيال أسعد لم يكن

يتجاوز امتلاك فرن، أو طاحون يديرها بنفسه، إلى جانب منزل بثلاث حجرات، أملس الجدران. وقد أضاف بعد الزواج خزانة في غرفة النوم تغص بالأثواب الحريرية الناعمة.

ولكن الفتاة كانت أكثر واقعية، على ما يظهر، فكان إحساسها بهوان الفقر ينمو يوماً بعد يوم. ولم يكن أمامها إلا هذا الزوج المسكين، تغرقه بألوان التذمر والحنق والشتيمة أحياناً. ذلك ما أصبح شائعاً في الحي، مضافاً إليه حديث الجميع عن فقدان الرجولة، وما إلى ذلك. وكان أسعد قد تخلى عن عمله في الطاحون، واشتغل عاملاً في أحد الأفران، وهي من مراحل التقدم المهني في نظره، وإن كان قد أرغم على هذا التقدم، بعد أن استسلم عبد الخالق من دون الحمار. ولم يكن أسهل على أسعد من أن يقنع نفسه، أمام هذه الخسارة، بأن الله قد أزال عنه النحس أخيراً.

وفي أحد أيام الشتاء الباردة جاء إلى الفرن مبكراً كعادته. وكانت الرياح قد عبثت بشعره المهمل،

وضـرجت وجنتيـه المتنـافرتين، فقـال أحـد الأجـراء في ضحكة ساخرة:

ـ أسـعد هـو أسـعد النـاس في هـذا الصـقيع، ففـي البيت من يدفنه كل صباح.

وأشـار بيديـه في حركـة الملاكمـة والصـفع. وفهـم أسعد ماذا يعني الأجير، فامتقع وجهه فجأة، وقال وهو يرتجف:

ـ لا أحد يستطيع أن يرفع علي يده.

وضحك أجير آخر كان ينقل العجين إلى الأطباق، وقال:

ـ ما عداها! إنها تصارع رجلين معاً، وهـو بين يديها مثل هذا العجين.

وفـوجئ أسـعد بهـذا التحـدي المهـين. ولكنـه لم يكـترث بمـا كـان يعنيـه الأجير مقـدار اهتمامـه بـأنهم يتحـدثون عـن زوجتـه بهـذه الصـورة العلنيـة. فاغرورقـت عيناه بالدموع، وقال بصوت مختنق:

ـ أكاذيب! الجميع يكذبون!

ثم مضى إلى فوهة الفرن، وبدأ يشعل النار في هدوء وصمت. والواقع أن مقدرته على احتمال الهوان كانت ترد عنه الأذى في معظم الأحيان. كان الآخرون يكفون عن الاستمرار في الإساءة إليه، ليس بدافع الشفقة فحسب، بل لأنه كان في نظرهم أتفه من أن ينال المزيد من الاهتمام، حتى لو كان هذا الاهتمام تحقيراً لا يطاق. وكان يشعر بهذا كله في إذعان هادئ.

والمألوف في مثل هذا الموقف أن ينطوي الإنسان الضعيف على نفسه في حنق داخلي عنيف. ولكن أسعد كان بعيداً عن كل حنق أو غيظ. كان يحس الطمأنينة والهدوء في قراءة نفسه، لمجرد شعوره بأنه مظلوم، وأنه، إذا كان فيه ما يدعو حقاً إلى الإهانة والاحتقار، فهو شيء في طبيعته. الطبيعة التي خلقه بها اللّه. ومن ثم فليس له إلا الإذعان.

ومع هذا فقد حدث أن تجاوز طبيعته ذات يوم، فوجد نفسه أمام فاجعة غريبة. في ليلة طويلة من أواخر

الشتاء، بقي في الفرن إلى ساعة متأخرة بعد العشاء. وكانت العادة أن يكون في البيت منذ الغروب، شأن جميع الأجراء الآخرين. ولا ريب أنه كان مضطراً إلى هذا التأخر، لسبب لم يعرف منه إلا أنه كان يجمع النار في فوهة الفرن قبل إخمادها، عندا فاجأته زوجته بصوتها الحاد، وهي تتخطى عتبة المكان:

ـ ماذا تفعل هنا إلى الآن يا بهيم؟

فتلفت حوله في وجل، خوفاً من أن يكون هناك من يرى ويسمع، ثم قال، وهو ينظر في عينيها بشيء من الغضب المتردد:

ـ كيف أتيت إلى هنا في هذا الليل؟ إنني أطفئ النار.

فاقتربت منه قليلاً، ووجهها يفيض غيظاً وكراهية، أو هذا ما خيل إليه، وقالت بلهجة أقرب إلى الشتيمة:

ـ كذاب! تريد أن أنام بدون طعام! أين الخبز؟

فصاح بها ـ وهي المرة الأولى التي يرفع فيها صوته أمام امرأة:

ـ إخرسي! إخرسي!

وقبل أن يتاح له التلفظ بما كان يريد أن يقول، رآها تتناول خشبة عريضة من وراء الباب، وتهجم عليه بحركة سريعة مصممة، وتجذبه من يده، وهي تصرخ، كما لو أن أعصابها تتمزق:

ـ اخرج، يا كلب!

ولم يعرف أحد كيف تبدل الموقف فجأة. تخاذل أسعد، وسحب وجهه، وانساق مع المرأة في ذل حتى عتبة الباب. ولكنه تبين أن المجرفة المسننة، التي يحرك بها النار، كانت ما تزال في يده الأخرى، وكانت أسنانها الطويلة ما تزال حمراء بلون اللهب. وفجأة شعر بعضلات وجهه تتقلص، فانفلت من يد المرأة الثائرة، وأمسك المجرفة بيديه الاثنتين، واندفع برأسها الحامي إلى وجه زوجته، وهو يصرخ في حقد طارئ:

ـ ابتعدي أيتها الكلبة! سوف أتخلص نهائياً من هذا الوجه الكريه!

فتراجعت المرأة في ذعر، وسقطت الخشبة من يدها، وقد لمحت في عينيه بريقاً وحشياً مرعباً، فقفز إليها، وهو يضرب الأرض بقدميه، كما يفعل الصبيان حين ينهرون قطة وقحة. وأطبقت على المكان هنيهة من السكون المرهق، وكانت أسنان المجرفة تقترب من وجه المرأة التي جمدها الخوف. ثم رآها أسعد تغمض أجفانها وتهوي، كما لو أن الأرض قد سحبت من تحتها. فألقى المجرفة في فوهة الفرن، وقد تلاشت عزيمته، وانكب عليها يهزها في هلع شديد. وحين أدرك أنها ما تزال تتنفس، أحس قهقهة جنونية في أعماق روحه. وعبثاً حاول إعادة المرأة إلى وعيها. فحملها إلى الداخل، حيث يوضع العجين ليختمر، وجعل يرش على وجهها الماء، فتحركت قليلاً، ثم فتحت عينيها، فرأى فيهما استسلاماً يبعث الشفقة، وسار بها إلى المنزل، وهي صامتة. وهو نفسه لم يتفوه بكلمة طوال

الطريق. وفي البيت ناما دون عشاء. وفي الصباح كلمها، فلم تجب، بل تفرست في وجهه بوداعة وحيرة، ثم أومأت برأسها، كمن تدل على أنها تفهم ما يقول. فابيض وجهه رعباً، وقد أحس بغريزته أن شيئاً ما قد حدث. وجعل يوجه إليها الكلام مراراً، وهي تكتفي بالإشارة والإيماء. وقال كمن يحدث نفسه: "أصبحت خرساء! أيمكن أن يتيبس اللسان إلى الأبد!؟".

والغريب أن المرأة أصبحت طيعة وديعة، تقوم بواجباتها المنزلية في إخلاص شديد، وتغمر أسعد بحنان لا حد له. ولم يعرف الحي تفاصيل الحادثة، وإن زعم الكثيرون أنه العقاب العادل على سوء سلوكها مع زوجها الطيب. وطاف بها والداها على جميع المشايخ المختصين بالأرواح الشريرة، فلا ريب أن الشيطان قد أمسك بصوتها ــ وهو ما أكده العارفون بمثل هذه الحوادث الفجائية ـ ولكن عبثاً. وعندما رفض الشيطان أن يتركها، آمن الجميع بأنها مشيئة الله. ومنذ أن أيقن أسعد بهذه الحقيقة، أصبح ينظر إليها في خشوع ورهبة،

بل بدت له كائناً عجيباً تغلفه الأسرار. وفي إحدى الليالي رآها نائمة، وعيناها مفتوحتان تحدقان في الفراغ، فامتلكه خوف شديد، وبدأت تلح عليه فكرة مزعجة هي أنه مسؤول عن هذا المصاب. ومنذ تلك الليلة لم يعد يطيق الوجود في البيت دون خمر.

وفي ذات يوم أفرط في الشراب، فروى لأحد معارفه كيف كانت حادثة الفرن، وسرعان ما انتشرت على الألسنة، ومن ثم كان المأزق الجديد في حياة أسعد. فحين سمعت الأم البدينة بتفاصيل الحادث، جن جنونها. وحدث أن إحدى العجائز الماكرات نبشت أشياء مجهولة عن ماضي أسرة الوراق المنقرضة، منها أن أم أسعد كانت مجنونة، وأنها، كما أكدت العجوز، كانت تخنق أولادها الصغار، قبل أن يخرجوا من القماط. وتذكر الجميع أن خمسة من إخوة أسعد ماتوا، وعمرهم شهر أو شهران. وأضيف إلى ذلك أن الأم المجنونة كانت تنفرد بالوليد وتناجيه قائلة: "لماذا تبكي يا حبيبي؟ لأنك جئت إلينا؟ لقد أرسلك الله يا حبيبي

لكي تزورنا. أهلاً وسهلاً، وإن كنا لا نحتاج إلى زوار، فالبيت ضيق كما ترى، والخبز يابس. لا تسمع ما أقول؟ لماذا الصياح إذن؟ هل تبكي لأنك تركت الجنة؟ كنت هناك بين الملائكة، ولكنه، سبحانه وتعالى، هو الذي أرسلك. فماذا نفعل؟ هل تريد الرجوع يا حبيبي؟ أبوك لم يكتب اسمك حتى الآن في دائرة النفوس، فلا تبك. سوف تصبح هناك من طيور الجنة السعداء".

وخلال هذه المناجاة كانت يداها تطوقان، رويداً رويداً، عنق الطفل المسكين، إلى أن ينقطع البكاء. أمام هذه الرواية لم يكن ثمة مجال للريب في أن أسعد قد ورث شيئاً من هذه الروح الشريرة، بل كانت شراً منها، لأنه أفلت من يدي أمه. وهكذا أوقف بتهمة غامضة، لا يعرف منها إلا أنها جناية ارتكبت على نحو ما، فأخرست زوجة مسكينة. وللمرة الثالثة نقل أسعد إلى سجن المدينة.

ولما كان من المستحيل أن يدان السجين في مثل هذه القضية الصعبة، فقد أجلت محاكمته عدة أشهر، إما

لأن التحقيق لم يجد وجهاً معقولاً لتدخل القضاء، وإما لأن القضاء نفسه لم يجد بين قوانينه مادة تنطبق عليها هذه الحالة. ثم حدث أن ماتت أم الخرساء، بين عشية وضحاها، من دون مرض أو حادث معقول، فقيل إنها لعنة أسعد وهو في سجنه. وصدق بعد ذلك أن احترق الفرن الذي كان يشتغل فيه. فكانت النار إشارة جديدة إلى الروح الشريرة، التي تطارد العالم بسحرها الخفي. ولا ريب أن حوادث أخرى قد ألصقت باسم السجين المسكين، فلم ينقض نصف العام حتى أصبح أسعد الوراق رمزاً مخيفاً، أكثر منه شخصاً تافهاً. ولم يطلق سراحه، إلا بعد أن اقتنعت الحكومة بما أبداه عقلاء الحي من رأي سديد في أن المصلحة العامة تقضي بجلاء أسعد عن المدينة، وهذا ما حدث. وكان أسعد مغتبطاً بهذا النفي، فللمرة الأولى شعر بأهميته فعلاً، وسره أن المنفى هو الريف: إحدى القرى البعيدة (وكانت شهور السجن قد بعثت في إحساسه المحدود حب الأشجار والحقول والآفاق الرحيبة)، ولكنه مع ذلك

ذهب حزيناً منكسر النفس، لأنهم منعوه من اصطحاب زوجته.

8

حين كان أسعد في السجن طرأت على مزاجه تغيرات عميقة، لابد من الإشارة إليها. لقد اكتشف أنه وحيد في هذا العالم، لا تربطه بالناس والأشياء أية رابطة جدية. تمكن فيه شعور العزلة حين استقر لديه أن أمه كانت تريد له الموت، وأنه عاش رغماً عنها. وقد صدق كل ما أشيع في هذا الموضوع، لأن هناك دليلاً قاطعاً، هو موت إخوته الآخرين. واستعاد خلال ذكرياته البعيدة مواقف كثيرة تثبت هذه الحقيقة. لم تكن أمه قاتلة مجنونة فحسب، بل كانت وحشاً بشرياً. هذا ما صارح به نفسه دون وجل. وهذه هي الشواهد الملموسة، كما لاحت في مخيلته الساذجة أكثر من مرة: في أحد الأيام ــ وكان عمره خمسة أعوام أو ستة ــ ضربته بالحذاء حتى انبثق الدم من

جبهته، لأنه أكل تيناً يابساً كانت قد احتفظت به لنفسها. في اليومين التاليين حرمته الطعام حتى أغمي عليه من الجوع. مرض أبوه مرة، وانقطع عن العمل أكثر من أسبوع، فرآها ترفع يديها إلى السماء، وتقول: "إذا كنت تريد أن تأخذه، يا رب، فلماذا تشقينا به كل هذه الأيام". عندما مات الأب ــ وكان ذلك بعد أعوام ـ سمعها تقول أثناء الولولة والعويل: "لماذا لم تمت في مكان آخر أيها الشقي؟ من أين نأتيك بالكفن؟!". وأضاف أسعد إلى هذا مواقفها الكثيرة من حوادث الموت: كيف كانت تفرح بموت الآخرين، فإذا كانوا أغنياء، تبدي الشماتة، كأن تقول مثلاً: "جاء وقت الحساب الأخير أيها الكلاب! اذهبوا إلى النار".

أما موت الفقراء، أي الجيران، فقد كان يحرضها على السخرية والاستهزاء، كما يبدو في تعليقاتها الوقحة: " لم يحدث شيء، المرحوم انتقل من القبر إلى القبر" أو "أخيراً تنازل عزرائيل فقبض هذه الروح التافهة"، وما إلى ذلك. غير أن مخيلة أسعد لم تتوقف

طويلاً، في هذه الرحلة الانتقادية عبر الذكريات، إلا عند الحادثة المشؤومة التي ماتت فيها هذه الأم الشقية.

كان، إذ ذاك، دون الثانية عشرة، وكانت أمه قد اعتادت السرقة على نحو يدعو إلى الخجل. بدأت بسرقة الثياب المنشورة على حبال الجيران، ولئلا يفتضح أمرها اختصت أولاً بالثياب الداخلية، ثم امتدت يدها إلى المطابخ، فكانت تتسلل إلى البيوت باسم الزيارات الودية، وتلتقط كل ما تعثر عليه من الثمار المجففة، واللحم المقدد، والجبن اليابس، وكل ما يسهل إخفاؤه.

ولما كانت الثياب والأطعمة أثمن ما تملكه بيوت الحي، فقد اكتشف أمرها بسرعة، وأصبحت النسوة يزعجنها بنظرات الريبة في كل زيارة، ولكنها لم تطرد من أي بيت، ولم ترجع عن عادتها الذميمة. ثم خطر لها أن تجرب حظها في السوق، ولا يعرف إلا الله كيف أتيح لها النجاح في حوادث النشل الأولى، فتمادت. والظاهرة أنها اكتسبت مهارة جديدة مع الزمن، فنشلت ذات يوم محفظة جيب ممتلئة بالنقود، ويبدو أنها لم

تتوقع مثل هذا الصيد الثمين في مثل هذا اليوم. كان يوم الاثنين وقفة عيد الأضحى، فغمرتها فرحة مثقلة بالاضطراب والهياج. إن أعصابها خذلتها هذه المرة، فخيل إليها أن الله كان يراقبها. ومن المفيد أن نذكر أنها كانت في كل حين تراعي شعورها الديني؛ فلم تسرق مرة يوم الجمعة. وكانت تصوم عن السرقة أيضاً طوال شهر رمضان. غير أن هذا الشعور كان يتبدد منذ أن تتحفز للعمل. ولم يكن فرحها هذا اليوم مشوباً بالندم، بل إن تفكيرها بالله مع المحفظة الدسمة لم يكن أكثر من تذكر حيادي هادئ. فمن الطبيعي أن الله يراها دائماً، ويعرف كل ما تفعل. ولكنه في هذه يطالبها بأشياء. هذا ما شعرت به، وهي في طريقها إلى البيت، ونظرت إلى السماء مراراً وهي تضحك. كانت الغيوم الرمادية تتجمع وتنبسط في فضاء خريفي عميق الزرقة. وفي هذه اللحظة سمعت أذان المغرب، فانعطفت دون أن تشعر إلى طريق الجامع. ولا يعرف أحد كيف بدأت الحادثة. كان المصلون يخرجون، ويتجمع حولهم

صبيان الأزقة الحفاة، الذين كانوا يملؤون ساحة الجامع في مناسبة العيد. وفجأة تعالت قهقهات عنيفة، وتناثرت النقود على الجميع. وكانت المرأة تصيح: وهي تدور بيديها شمالاً ويميناً: "خذوا.. خذوا... لا أستحقها.. إنها كثيرة علي!"، ثم تستأنف القهقهات في عنف، ولم تبق لنفسها شيئاً، حتى المحفظة قذفت بها في الفضاء، بعد أن نثرت كل ما فيها.

وأخذت المرأة إلى بيتها، وهي ما تزال تضحك، وتكرر الصياح: "لا أستحقها.. لا أستحقها.. خذوا.. خذوا..."، ثم أضافت هذه العبارة: "اللّه أراد". وجعلت تكررها في الطريق، وقد أمسكت بعض النسوة بذراعيها، وسرن بها في تأثر حزين. كان واضحاً أنها مجنونة، ولكنها لم تحمل هذا اللقب أكثر من يومين، سردت فيهما ما حدث يوم الاثنين بالتفاصيل عشرات المرات، ومن ثم علقت الحادثة بذاكرة أسعد كما رويناها، على أن يضاف ما قالته الأم المسكينة ساعة موتها. كان ذلك عند الفجر، وكان أسعد يبكي في

هلع وشقاء. لقد خاطبت اللّه بكلمات نابية مستهجنة أقسى من الشتائم الوقحة، حتى إن أسعد خرج من الكوخ خوفاً من أن تقوضه نقمة السماء.

لم يكن ثمة بد من عودة أسعد إلى هذا الماضي البعيد، وهو في طريقه إلى الريف، وحيداً منعزلاً، دون عمل، ولا مال، ولا قلب صديق يتلفت إليه. ولكن قلبه كان مفعماً بالغبطة والأمل. كانت الحقول تنبسط أمام عينيه في أبعاد رحيبة من العشب الندي، تتناثر فيها الأشجار الصغيرة في متسعات نامية من الظلال، تبدو وكأنها تترشح من جذوع الشجر. وليس غريباً أن يكون اطمئنان أسعد صادراً عن إحساسه بأنه ما يزال شيئاً حياً في هذا العالم، وإن كانت مشاعره البدائية أضعف من أن تحمل إحساساً من هذا القبيل. بل كان هناك إيمانه العميق باللّه، الكائن الأعلى الذي يوجد في كل مكان، ويحمي بقلبه الرحيم جميع الكائنات.

واشتغل أسعد في بادئ الأمر خادماً، ولعله استطاع أن يوفر شيئاً من النقود، فاشترى حماراً متواضعاً بديلاً عن صديقه القديم، وامتهن بيع الأشياء الصغيرة للفلاحين، كالدبابيس والأمشاط وغيرها. ثم أصبح بائعاً متجولاً بكل معنى الكلمة، فكان حماره حانوتاً متنقلاً، لا يغلق إلا في الساعات الأخيرة من الليل. وكان يذهب إلى المدينة مرتين في الشهر متخفياً بلحيته الطويلة وكوفيته الرقطاء، فيأخذ البضائع ويعود. وفي أحد الأيام وصاه بعض الفلاحين بأن يجلب له نسخة من "دلائل الخيرات". وعبثاً حاول أسعد الاهتداء إلى مكتبة في المدينة. ولم يكن في ذلك ما يدعو إلى التساؤل، فليس من الطبيعي أن يفتح دكان خاص لبيع الأشياء التي لا لزوم لها إلا في أوقات الفراغ. ذلك ما حدث به نفسه، وهو يتابع البحث عن الكتاب. وعلم أن بائعي الأقمشة يقومون أحياناً بهذه المهمة وكانت صدفة غريبة أن انتهى به الأمر إلى واحد من هؤلاء اسمه "نعمة"، وهو نفسه الابن العاق، الذي كان عليه أن يقابله بعد سجنه

الأول. ولم يجد في ملامح الشاب ما يدل على أنه ابن أبيه الحاج مراد. كان يغاير أباه، حتى في لون عينيه. غير أن أسعد لاحظ، وهو يحدثه، أن نبرة صوته تكاد أن تكون صدى لصوت أبيه، وكذلك حركة شفتيه أثناء الكلام. وحين أشار أسعد إلى وصية الأب المسكين، يوم كان في السجن، بدت الكآبة على وجه الشاب، وتنهد من الأعماق، وهو يقول كمن يحدث نفسه:

ـ ولكننا، وا أسفاه، لا نعرف قيمتهم إلا بعد أن يموتوا.

فقال أسعد، وكأنه لم يفهم ماذا كان يعني نعمة:

ـ ومع هذا فلا بد من الموت! ماذا ينتظر شيخ في السجن؟ ألم تزره هناك أبداً؟

فأجاب نعمة في تصميم:

ـ لا. لو أنه بقي عشرين عاماً لما ذهبت إليه! كنت في حالة من الغيظ الدائم، بل الحقد الذي يشعرني بأنه لم يكن لي أب على الإطلاق! لا، بل بأنه كان لي أب

يجب أن أكرهه وأحتقره. ومن يستطيع التحكم بأفكاره العنيدة؟ أما الآن، حين أتخيّله في القبر ينهشه الدود، فإن بدني يقشعر من الخوف والندم.

وفجأة لاح على الشاب أنه خشي أن يكون قد أوغل في الحديث عن أمور خاصة أمام رجل غريب، فاستدرك قائلاً:

ـ إنها مشيئة الله على كل حال. لا أحد يعرف ما قدر عليه.

وعمد إلى أحد الرفوف العلوية، فتناول كتاباً صغيراً قدمه إلى أسعد، وهو يقول:

ـ هذه الأدعية الشريفة أفضل زاد للإنسان.

وشعر أسعد بحسرة عميقة، وهو يقلب الصفحات القليلة، إما لأنه كان يجهل القراءة، وإما لحرمانه من هذا الزاد "المبارك"، كما أحس في تلك اللحظة، غير أن رؤية الكتب المصفوفة أثارت في نفسه عاطفة غامضة، تشبه الحنين إلى الطفولة، والطمأنينة النقية التي يبعثها

سكون الليل. كانت معظم الكتب مجلدات مذهبة من القرآن الكريم. وأحس أسعد أن هذا الجانب من الحانوت يتألق بضياء خفي. وبدت له الأقمشة المكومة حوله، وجميع الأشياء الأخرى، وكأنها غارقة في الألوان الباهتة. وألحّ عليه هذا الإحساس طوال طريق العودة. وصادف أن وقعت عيناه على نرجسة ناضرة بين ركام من الحجارة الكابية، فتحرك خياله في شيء من الحس الفني، وهي المرة الأولى التي تربط فيها مخيلته بين الصور المشتتة، وانبعثت في نفسه هذه الفكرة الغريبة: "إن الله يخاطب الناس عن طريق النور، يخاطبهم بالشمس والقمر والنجوم والأزهار المشرقة. حتى الكلمات التي أرسلها إليهم في كتابه العزيز، هي آيات مرتلة تنير ظلام القلوب".

ولم يخطر لأسعد أن هذه الفكرة العابرة، وهي أبعد الأشياء عن مزاجه الكثيف، كانت بداية تغير حاسم في مصيره.

كان الشتاء قاسياً صعباً في المدينة والريف، فلم تتوقف الأمطار والثلوج إلا أسابيع قليلة، كانت تتحرك فيها الرياح الباردة في صقيع يجمد الأوصال. واضطر أسعد إلى الانزواء في معظم الأيام، أي إلى الانقطاع عن البيع والشراء. كان يأوي إلى كوخ واسع أقيم للرعاة في أحد التلال المطلة على الكروم. وكان التل مكسواً بأدغال متشابكة من السنديان، تنحدر خلالها درب صغيرة ملتوية، صفراء التراب، ترصعها الحجارة الزرقاء الداكنة. هذا ما تبدو عليه عند الصباح، حين يبارح أسعد كوخه المنعزل، ويمضي إلى بيوت القرية، يلحق به الحمار أنّى سار. لم يكن له من هدف إلا التحدث إلى الفلاحين، والحصول على ما يعوزه من الطعام. ولم يكن يجد غضاضة في أن يعطى شيئاً دون ثمن، كما يحدث للمتشردين. ذلك أن الفلاحين هناك، مهما يكونوا فقراء، كانوا يجدون متعة في مثل هذا الكرم الصغير، الذي لا يكلفهم أكثر من رغيف الخبز، أو بعض الجبن والزيتون. ولم يكن في هذا ما يشير إلى

التسول الذي اختصت به تقاليد المدينة. ومن ثم فإن أسعد حافظ على جدارته في نظر الجميع. والواقع أن طيبة قلبه ـــ وآيتها الاستهانة بالأمور الدنيوية ـــ قد منحته مكانة مرموقة في القرية. وإذا كانت العادة في المدينة أن تكون السذاجة مثاراً للسخرية، فإنها في الريف يمكن أن تحمل شيئاً من القداسة؛ أو هذا ما كان بالنسبة لأسعد. كان الفلاحون يتحدثون عن أخطائه في حساب النقود، ونسيان الأسعار، وما إلى ذلك من مظاهر الغباء التجاري ـ إذا صح هذا التعبير ـ كما يتحدثون عن فضائل، لا يتصف بها إلا الأنقياء، الذين أنعم الله عليهم بطبيعة سمحة لا تقلقها هموم الدنيا. وإذا أضيف إلى هذا أن أسعد كان نموذجاً للشرف والحياء فيما يتعلق بالشؤون النسائية، كان من السهل أن يفهم سر المكانة المعنوية التي حظي بها مع الأيام. فعلى الرغم من أن الفلاحين، في هذه القرية، كانوا في غاية الجشع المادي بسبب فقرهم، والنهم إلى الجنس لحاجتهم إلى الأولاد، فقد كانوا يتطلعون في

إعجاب إلى أمثلة الزهد والعفة، كما لو أنهم يتلمسون من يفتديهم فيما يحملون من أوزار. وكل استجابة للغرائز في اعتقادهم خطيئة ووزر. ذلك ما درجوا عليه، منذ مئات السنين، في هذا المجتمع البشري الصغير. والحقيقة أنه ليس مجتمعاً بالمعنى الصحيح، بل مجموعة من البيوت المتناثرة عبر البساتين، تكاد الأشجار أن تخفيها عن العيون، على الرغم من أنها تزيد على مائتي بيت، يعمرها ما يقارب الألف من الكائنات البشرية، التي لا تتخاطب إلا بالصياح.

ومع أن الغزارة والخصب يلوحان في كل جانب من هذه القرية المنعزلة، فإنها أكثر الأماكن تبرماً بالقلة والحرمان. إن وفرة المياه، وازدحام الشجر، وكثرة الحيوانات، وانتشار الأطفال بالعشرات في كل درب وبستان، كل هذا لا يمنع الرجال والنساء ـ وهم البشر الحقيقيون ـ من اعتبار الحياة سلسلة لا نهاية لها من أحزان الفاقة وهموم الحرمان. ذلك لأنهم لا يملكون من الأرض، التي يحيون عليها، ملكاً حقيقياً، إلا القبر.

هذا على الأقل هو الشعور الذي توارثوه؛ ولم يكتفوا بالإفصاح عنه في أقوالهم وتصرفاتهم فحسب، بل آمنوا أيضاً بأن نظام العالم ينبغي أن يحتم عليهم عدم التملك، إما لأنهم لا يستحقون شيئاً من الدنيا ـ وهذا ما يكرره الأتقياء فيهم ـ وإما لأن الذين هم أهل لأن يملكوا ينبغي أن يكونوا أغنياء بالولادة، أو من ذوي النفوذ. ولا يوجد هؤلاء إلا في المدينة، وعبارة "ذوي النفوذ" تعني ـ في نظر الأذكياء من أبناء القرية ـ كل من استطاع أن يجمع بين الأصل الشريف، والقدرة على نهب الدولة، وتسخير الجند لحماية ممتلكاته، أو بتعبير أوضح، كل من يجب على الجميع أن يحترموه ويهابوه. وهذا ما توافر في شخص واحد كان يملك القرية، بكرومها، وبيوتها، وبساتينها، والحيوانات التي تتحرك فيها. ولا ريب أن هذا النموذج من الوضع الإقطاعي هو الآن في طريق الانقراض، ولكن العقلية، التي درجت على تبنيه منذ القديم، ما تزال تعيش في هذه القرية النائية، كما لو أن زوالها يزعزع كل

تماسك منطقي في هذه الأذهان. والغالب أن الخوف من الحرام هو الذي يجعل الأشياء معقولة إلى هذا الحد، ولكن هذا الخوف لا يذكر إلا حين يتعلق الأمر بما يمكن أن يسلب أو يسرق؛ أما الكذب، والوشاية، والاعتداء على الشرف بأقذر أشكاله، والقتل أحياناً، فهي جميعاً من الأمور التي لا علاقة لها بالحلال والحرام، ولا تمس الوجدان إلا بما ينجم عنها من أضرار مؤقتة. ما تلبث أن تمحوها الأيام. ومع هذا كله، فقد كان الله ماثلاً في ضمائر الجميع؛ إنهم يذكرونه في الليل والنهار، ويبدؤون باسمه الطعام، وارتداء الثياب، والعمل في الحقل، ويقسمون باسمه أيضاً صدقاً وكذباً، ويستنجدون به في الملمات، وغير ذلك، ولكنهم لا يحفظون من وصاياه إلا أن يكونوا مؤمنين.

ومن المرجح أن أسعد كان من طراز آخر، أو هذا ما دلت عليه تصرفاته خلال هذه الشهور. كان أعجز من أن يدّعي فهم الدين والتقرب إلى الله، وذلك لحرصه العفوي على الإذعان والمسكنة. ولكن الفلاحين جميعاً

أصبحوا يعتقدون بأنه الإنسان الوحيد الذي يفعل ما يريد الله. وقد يكون هذا الاعتقاد مجرد شعور غامض، ولكنه أصبح، مع الزمن، أكثر رسوخاً في النفوس من وجود أسعد نفسه. ومن ثم ـ وهذا هو الأمر الذي لا سبيل إلى فهمه ـ كان الجميع يحسون رابطة خفية تربطهم بالبائع المسكين.

أما هو، فقد كان طوال الشتاء في عزلة نفسية قاسية، على الرغم من اندماجه اليومي في حياة الآخرين. كان يعود إلى كوخه عند المساء، فيشعل الحطب في عتبة الباب، ويتكئ على حافة الفراش، ملتحفاً عباءته الخشنة، ثم يستغرق في تأمل النار، دون أن يبدو عليه أنه يفكر بشيء. ولكنه كان يسهر حتى ساعة متأخرة من الليل، ما يدل على أن خواطره المجهولة كانت على جانب لا يستهان به من التوقد والفعالية.

وفي إحدى الأمسيات، عاد وهو يحمل نبأ مثيراً، لا بد أنه شغله طوال ساعات الليل: هو أن زوجته الخرساء

وضعت صبياً. وفي هذه الليلة كان مضطرباً، بادي الانفعال، وقد شرب المزيد من الخمر، وتنازعته نوبات الضحك والبكاء أكثر من مرة، ولم يغمض أجفانه إلا عند الفجر. ولم ينم إلا الساعات الأولى من الصباح. ونهض نشيطاً ممتلئاً بالحيوية. وعلى الرغم من هطول الأمطار ركب حماره الصغير، ويمَّم شطر المدينة. ولا ريب أن الفكرة الوحيدة التي كانت تدور في نفسه طوال الطريق، هي أنه أصبح أباً. فقد كان يحدث نفسه بصوت مسموع عن أشياء تتناول حنينه الجارف إلى زوجته، وعطفه عليها، وحبه الجنوني للوليد الذي لم يره بعد. وكان مما قاله في هذه المناجاة أن الله لا يتخلى عنه، وأنه أقصاه عن بيته، كل هذه الأيام، لكي يمنحه أخيراً أجمل سعادة على الأرض.

ونسي أسعد ـ لشدة انفعاله، أو لفرط غباوته ـ أن الآخرين لا يوافقون دائماً على ما أراده له الله، فحين وصل المسكين إلى الكوخ، مُنع من الدخول، واستدعي الحارس لكي يعود به إلى طريق القرية من جديد.

فرجع، وفي صدره هموم كالجبال. وتحولت جميع أفكاره هذه المرة إلى شيء واحد، كان يعذبه طوال الطريق. وهو أنه كان ينبغي أن يسمع بكاء الطفل على الأقل.

حين لاحت تباشير الربيع، انحسرت الهموم في نفس أسعد عن رغبة جامحة في الاستمتاع بالحياة. ولم يكن ما هو أسهل لديه من إرواء هذه الرغبة. فالحياة بكل معانيها لم تكن تتعدى، في نظره، أن يتغذى جيداً، ويرتدي الثياب النظيفة، ويشرب كأساً عند العشاء، ويشارك في أفراح الآخرين، وينام مرتاح البال. وجميع هذه الشروط لم تكن متوافرة له من قبل. كان يهمل الغذاء والثياب، ويميل إلى العزلة والانطواء في قرارة نفسه، ويأوي إلى فراشه مثقلاً بالأفكار الحزينة؛ وهي، من دون ريب، تتعلق جميعاً بحرمانه من البيت العائلي. ولكن إرادةً غريبة أتاحت له "لن أحزن على شيء بعد الآن. ولن أفكر بشيء"، واستأنف عمله اليومي المعتاد. وفي المساء حمل زجاجة الخمر في جيب

سترته، وانضم إلى أول جمهرة صاخبة من الفلاحين. ولما كان الربيع موعداً للأعراس والاحتفالات، فقد كان لأسعد في كل يوم نصيب من المرح والبهجة. وفي كل ليلة كان يعود إلى كوخه شبه سكران. وكان الفرح يلازمه طوال النهار. ومرت أيام أتقن فيها "الدبكة"، وجعل يرقص مع الفلاحين في كل مناسبة، على الرغم من لحيته السوداء الطويلة، ومظهره البليد. وذهب ذات صباح مع بعض الشباب لصيد الطيور والأرانب، ثم تمكنت منه هذه الهواية، فاشترى بندقية صغيرة، ونطاقاً عريضاً من أجل البارود، وجعبة من الجلد الأحمر، زيَّن بها جميعاً جدار الكوخ. والغريب أنه أبدى مهارة سريعة في إصابة الهدف. ويرجع ذلك إلى طريقته في تسديد البندقية ـ كما يقول الصيادون في القرية ـ فمنذ أن يسندها إلى كتفه، كان يبدو وكأنه صنم متحجر، فلا يرف له جفن، و لا تصدر عنه أية حركة أو اهتزازة. وكانت عيناه تتسمران على فوهة البندقية، لا على الهدف، وقلما كان يخطئ الإصابة.

وحدث مرة أن اصطاد عصفوراً صغيراً كان يحلق في الفضاء، وما يكاد يلمحه البصر، فقال رجل عجوز كان إلى جانب أسعد:

ـ إنه إلهام من الله، يا بني.

فالتفت إليه أسعد في تساؤل، فأردف الرجل:

ـ أتظن أنك تستطيع أن تسقط هذه الروح من السماء، لولا مشيئته سبحانه وتعالى؟

فقال أسعد، دون اكتراث:

ـ صحيح... صحيح...

ولكن هذه الحادثة التافهة أثارت في نفسه تساؤلات عجيبة، خلاصتها أن الله لا يخلق الناس لكي يذعنوا لما يقدروه عليهم فحسب، بل إنه يفعل عن طريقهم أعمالاً خارقة. لقد مات هذا العصفور لأن الله أنهى أجله، هذا لا شك فيه، ولكن من الذي نفذ إرادة الله؟

وعلى هذا النحو بدأت الخواطر الدينية تغزو ذهن أسعد من جديد. فخطر له مرة أنه، لو ذهب إلى المدينة

بهذه البندقية، وانتزع زوجته وابنه، وأطلق النار على كل من يعارضه، ألا تكون هذه مشيئة الله؟ ولكن جبنه الفطري وضع حداً لهذه النزوة الشريرة، فقال في نفسه: "ليتنا نعرف دائماً ما يريد الله في أفعالنا، وما لا يريد!".

ولكن هذه المسألة لم تشغله طويلاً على ما يظهر، لأنه اضطر ذات يوم إلى الاعتراف بالتنكر لكل ما يريده الله. حدث هذا يوم أتيح له أن يحضر سهرة ممتعة أعدها أحد أبناء "صاحب القرية" لعدد من أصدقائه، قدموا جميعاً من أجل الصيد. وكان من الطبيعي أن يدعى أسعد، لأنه قضى اليوم كله مع الضيوف المترفين، بين الأدغال والبساتين، وأبدى من البراعة في الصيد ما جعله محط الأنظار. ولم يتح لأسعد من قبل أن يكون بين أناس في مثل هذه النظافة والرقة. كان يسمع من أبناء القرية أن أولاد الأغنياء هم في غاية الميوعة والرخاوة، وأنهم ـ لو لم يكونوا من أصحاب المواريث ـ لكانوا من غلمان الأماكن المشبوهة. ولكنه

وجد لديهم من الدماثة ورجاحة العقل ـ إلى جانب كرم الضيافة ـ ما جعله يذوب أمامهم من التواضع، إذا صح هذا التعبير. فعندما جلس على المائدة، وأمامه الكأس الممتلئة والطعام الوفير، أحس أنه في زاوية من الجنة. وقال له أحد الشباب، خلال تشعب الأحاديث العادية:

ـ أسعد الوراق! لا بد أنه كان في عائلتك جد عالم، أو يحب الكتب على الأقل. وهذا ما يبدو عليك، أنت أيضاً، بهذه اللحية المهيبة! ولما كان الجو أقرب إلى المرح، فقد ضحك أسعد وهو يقول:

ـ لا أعرف شيئاً عن أجدادي، ولكن يقال إن أمي كانت مجنونة. وفوجئ الجميع بهذه الصراحة. ولا ريب أن أسعد نفسه قد فوجئ أيضاً بما قال. والغالب أن الخمرة كانت قد أفقدته السيطرة على لسانه، فأردف، وهو يشارك الشباب ضحكهم:

ـ أما من أجل اللحية، فإنني لا أقرأ ولا أكتب!

فقال أحدهم:

ـ ولكنك ما تزال شاباً، تستطيع أن تتعلم.

فأجاب أسعد في جد:

ـــ لو أراد الله، لتعلمت منذ الصغر، ولكنه، سبحانه وتعالى، اكتفى بلحيتي على ما يظهر.

وضحكوا جميعاً من جديد. وخشي أسعد أن يكون قد ثرثر أكثر مما ينبغي، فلزم الصمت. ولكن أحد الحاضرين عاجله بهذا السؤال المفاجئ:

ـ وهل تحب الله يا أسعد؟

فقال أسعد بعد هنيهة من التلكؤ:

ـ ومن يستطيع أن لا يحب الله؟ لماذا خلقنا إذن؟

فقال الشباب، وقد اتسمت لهجته بطابع الجد:

ـ ليس المهم أنه خلقنا، بل كيف خلقنا. تصور أن جميع الفلاحين، مثلاً، هم فقراء قذرون جهلة، لأن الله خلقهم هكذا، فكيف يستطيعون أن يحبوه؟

فلم يجب أسعد. ولا بد هنا من ملاحظة عابرة، هي أن هؤلاء الشباب كانوا من الجيل الذي يجد متعة في

التعـرض لشـؤون الـدين، بشـيء مـن الشـك والتحـدث والإلحـاد أحيانـاً. والمـرجح أن هـذا الشـاب ـ بالـذات ـ كان، إلى جانب هذا، معنياً ببعض القضايا العامة التي درج الشـباب علـى التحـدث عنهـا في هـذه السـنوات، كتحرير الفلاحين، والثورة على النظام القائم، وغير ذلـك. والواضـح أن هنـاك مسـتوى معينـاً مـن الرقـي الاجتمـاعي ينبغـي أن يبلغـه الإنسـان لكـي يسـتطيع الخـوض في هـذه المشـاكل، كـأن يكـون غنيـاً، أو في طريـق الغنـى، أو مثقفـاً إلى الحـد الـذي يتيح لـه الشـعور بشخصـيته المتميـزة، والتمسـك بمتطلباتهـا الماديـة والمعنوية، إلى آخر ما هنالك. وعندئذ يندر أن تكـون أية مشكلة عامة أمراً حيوياً في الوجود اليومي لأي فـرد مـن هذا الطراز. فسـواء لديـه وزعـت الأراضـي اليـوم، أو بعـد عشـرين عامـاً، وحـدثت الثـورة الاجتماعيـة، أو اسـتمر الفسـاد، مـا دام هنـاك متسـع مـن الوقـت لمناقشـة الأمـور. ومـن ثـم تصـدر هـذه المتعـة الفـذّة: أن يكـون لـك حـق الوصـاية علـى العـالم، والإشـراف علـى تغييره، وأنـت في

نجـوة مـن كـل تبـديل. وبهـذه الـروح كانـت أبسـط مشـاكل الواقـع مثـاراً لجميـع القضـايا الإنسـانية علـى الإطلاق، من تعديل قانون الانتخابات مثلا، إلى مشكلة الحرية الإنسانية، أو وجود الله. ومن البديهي أن يكون ذهـن أسـعد مستعصـياً علـى مثل هـذا الـوعي "الرفيـع"، ولكنه، مع ذلك، لم يحجم على إبداء رأيه في السؤال الذي وجه إليه، فقد قال بعد فترة طويلة من الصمت، كان يصغي خلالها إلى الأحاديث الدائرة:

ـ إذا قدر الله على الناس أن يكون فقراء، فكيف يفعلون ما يزيد غضبه عليهم؟

فقال الشاب، وفي لهجته شيء من الدعابة:

ـ إن سـكوتهم علـى الفقـر هـو الـذي يجـرّ علـيهم التعاسة والغضب الإلهي. ألا ترى هذا؟

فقـال أسـعد بعـد تلكـؤ طويـل ـ وتلـك عادتـه في الحديث:

ـ صحيح، ولكن الإنسان لا يفعل إلا ما يقدره الله.

وعندئذ تصدى شاب آخر له عينان زرقاوان وشارب أنيق، وجعل يستجوب أسعد في مزاح لبق:

ـ حسناً يا أسعد، هل قدر عليك أن تشرب الخمر، وأن تجهل الصلاة وقراءة القرآن، وأن تكذب و... ومع ذلك تعتبر نفسك من عباد الله الصالحين.

واعترف أسعد بهذه الحقيقة، على الرغم من أنه لم يكن يأتي جميع هذه الموبقات (كان الشاب قد ذكر عبارات بذيئة تتعلق بالنساء). وعندئذ قال صاحب الوليمة، وكان على جانب من البدانة يضفي على وجهه الفتي ملامح طفل مرح:

ـ سمعت أن "الراشد" يقول شيئاً بهذا المعنى، حين يسطو على البيوت: "لن يصيبكم إلا ما كتب الله عليكم"؛ وهو أيضاً مثل سائر العباد. فغمرتهم موجة من الضحك العابث، وغمغم أسعد، وهو يشرب بقية الكأس في غبطة ونشوة:

ـ المهم أن لا نؤذي أحداً.

وبدا للجميع أن هذه العبارة الساذجة ليست إلا تتمة لحديث داخلي غامض، كان يدور في أعماق الرجل المسكين. والواقع أنه كان يرد الاتهام عن نفسه. فالمعروف في جميع القرى المجاورة أن الراشد ـ واسمه الأول عبد الحي ـ كان من أشهر اللصوص الذين عرفتهم تلك المنطقة من الريف. وإلى جانب تهريب المخدرات وجرائم القتل والسرقة، كانت فضائحه الأخلاقية على كل لسان. ولم يكن فيه ما يدعو إلى اعتباره إنساناً ـ في نظر الفلاحين على الأقل ـ إلا أن الحكومة عجزت حتى الآن، عن إلقاء القبض عليه.

ومن المصادفات الحزينة أن مجرماً من هذا النوع كان الصفحة الأخيرة في سيرة أسعد الوراق.

لم يكن في الريف ثمة ظل للحكومة يسترعي الانتباه. فالفلاحون لا يشعرون بوجودها إلا في أحوال طارئة، كظهور جابي الضرائب، أو دورية مسلحة تتفقد المطلوبين للجندية، أو مرور المختار على أحد البيوت بمذكرة من الحكمة، وهو أمر نادر. أما في

هـذه السـنوات، فقـد أضـيف سـبب جديـد تعلـن بـه الحكومة عن وجودها باستمرار، هو قصة الشقي عبد الحي الراشد. فقلما يمضي شهر دون أن ترتكب جريمة قتـل، أو سـطو، أو اعتـداء، وعندئـذ يعلـن الحصـار في القـرى، وتفـتش جميـع البيـوت. ومعنـى ذلـك أن الثيـاب العسكرية تتحرك بسلاحها الكامل، في هذه الأمكنة الهادئة وبهذا تأخذ الحكومة في أذهان الجميع صورة الكائن الجبار، الذي يستطيع أن يفعل ما يريد. ومن حسن حظهم أنه بعيد عنهم، يكتفي أحياناً بإرسال مندوبيه، ولو كانوا في مثل هذا المظهر المهيب. والهيبة في الواقع، هي الكلمة المناسبة، فقد كان الفلاحون يهابون السلطة عندما تدعوهم إلى الانتخاب في بعض المناسبات. فلم يكن يذهب منهم إلا العدد القليل، ليس تنكراً للقانون، بل خوفاً من أن يكونوا قد خالفوا القانون دون أن يعرفوا، ومن ثم يعرضون أنفسهم للمتابع. ومن هذه الناحية كان الشعور بالذنب يلاحقهم أيضا. فلو أنهم كانوا صالحين لأعفتهم الحكومة من

الضـرائب، ومـن الجنديـة أيضـاً، وفتحـت لهـم مدرسـة يتعلمون فيها، ويصبحون جديرين بأن يأخذوا المعاشات، إذا اقتضـى الأمـر. والخلاصـة أن أبنـاء الريـف ـ في هـذه المنطقة على الأقل ـ كانوا نموذجاً نادراً للرعية الطيبة، التي تلتمس الطمأنينة في وداعة. ولذلك فقد استنكروا عصيان "الراشـد"، ووقفـوا بكـل مشـاعرهم إلى جانـب الدولـة، ولاسـيما أن شـهرته الداميـة بـدأت في ظـروف غامضـة: فيقـال إن أبـاه قـد دربـه علـى التهريـب منـذ الصغر، وإنه ـ أي الابن ـ كان على علاقة مريبة بإحدى عماته العوانس، وقد ماتت في حادثة حريق. غير أن نجمه الأسـود لم يرتفـع في سمـاء الشـهرة ـ كمـا يقولـون ـ إلا عنـدما هـرب مـن السـجن، بعـد أن وشـى بأحـد رفاقـه الأشـقياء، وأسـلمه إلى الإعـدام. ولم يكـن هـذا الرفيـق مجرمـاً بـالمعنى الصـحيح، بـل كـان موضـع العطـف والإعجاب، لأنه ـ كما قيل ـ لجـأ إلى الجبـال في حادثة مشرفة: فقتل شخصاً في المدينـة دفاعـاً عـن كرامتـه. ثم أضافت الأعوام المتعاقبة جرائم لا تحصى إلى سجل عبد

الحي الراشد، حتى أصبح مثاراً لحنق الطيبين والأشرار معاً.

وفي ذات ليلة من أوائل الصيف، تسلل الشقي إلى كوخ أسعد الوراق، بل اقتحم الباب في هدوء وحذر، كما لو أنه يباغت ضحية خطرة، فتنبه أسعد من نومه، وهو يقول:

من؟

فأجابه صوت ينطوي على التمزق والعناء في آن واحد:

ـ أنا... عبد الحي... لا ترفع صوتك!

ونهض أسعد في شيء من الاضطراب، وأشعل سراجاً في إحدى الزوايا، دون أن يقول كلمة. وانتشر الضوء الشاحب في جوانب الكوخ، فامتلأت عينا أسعد بهذا المشهد المثير: رجل عاري الرأس، تصبغ الدماء وجهه ويديه، وتلطخ ثيابه حتى الحذاء، ولكنه، مع ذلك، يحمل البندقية بذراعين شديدتين، كما لو أنه

يهم بإطلاق النار. ورأى أسعد في بريق عينيه تألقاً مضطرباً، يشبه انصهار شعلة من النار في مياه مظلمة. وكانت الدماء تحجب كل تعبير في الوجه المضرج، ومع هذا فقد أدرك أسعد، في شعور غريزي صامت، أن الرجل لم يكن يريد الشر، فسأله في هدوء مصطنع:

ـ ما بك؟ هل أصبت؟

فتحركت في وجه الراشد ضحكة مكتومة، لم يخفها لمعان الدماء، ووضع البندقية جانباً وهو يقول:

ـ لا، لم يصبني أحد، ولكنهم عرفوا مكاني. هل سألوا عني هنا؟ فقال أسعد وهو يقترب منه:

ـ ومن يستطيع الوصول إلى هذا التل؟ أغلق الباب جيداً، وامسح هذا الدم. كيف حدث هذا؟

ـ جرح بسيط في الرأس، لا بد أنه أحد الأغصان اليابسة.

ورفع يده إلى جبهته يتلمس مكان الجرح، وأردف، وهو يتناول جرة من عتبة الباب، ثم يجلس على حافة الفراش:

ـ لقد أتعبوني هذه المرة. لاحقوني منذ العشاء، ولكنهم لم يطلقوا الرصاص كما يفعلون دائماً؛ وهذا ما يخيفني.

وتعاون الرجلان على غسل الدماء، وتضميد الجرح، وهما يتحدثان في تفاهم عجيب، كما لو أنهما كانا يرتبطان بصداقة قديمة. وكان مما قاله أسعد أن على الإنسان أن يكون شجاعاً في الأوقات الحرجة، لأن أمره عندئذ يكون في يد اللّه.

فأجابه الشقي في تخاذل مفاجئ:

ـ هيهات! إن اللّه لا يمد يده للمهربين والقتلة، ولا سيما حين يقعون في مصيبة. هذا ما أشعر به دائماً.

فقال أسعد:

ـ هذا هو الخطأ! إن رحمته ـ تعالى ـ هي أوسع من كل شيء. إنه لا يتخلى عن أحد، حتى الذين ابتعدوا عنه ينظر إليهم في الوقت المناسب.

ـ لم أبتعد عن اللّه لحظة في حياتي؛ وقد أحببته دائماً، ولكنه كان غاضباً عليَّ في كل حين، وإلا لماذا

دفعني إلى هذه الصنعة القاسية؟ لماذا لم يمنعني مرة واحدة عن القتل والنهب؟

وبدت في لهجته نبرة انفعال حزين. وكان الصمت يملأ كل مكان، حتى ليصعب على الأصوات البعيدة أن تتحرك في فراغ الكوخ. وسمع الرجلان حركة خفيفة عند النافذة، تشبه حفيف الأجنحة، ثم وثبت جرادة صغيرة أمام قدمي أسعد، فسحقها في عنف، وهو يقول:

ـ ما تزال هذه الحشرات مستيقظة.

ثم خاطب الرجل قائلاً:

ـ أتظن أنهم يتبعونك إلى هنا؟

وتناول الجرادة الميتة عن الأرض، ثم قذف بها من فتحة النافذة، وهو يغمغم:

ـ لا يموت أحد قبل انتهاء أجله. لقد سعت هذه المسكينة من آخر الوادي، وفي قلب الليل البهيم، لكي تموت تحت قدمي. ولكن هذا لا يعني أن الإنسان يمكن أن يسحق كالحشرة.

لا ريب أن أسعد كان في يقظة ذهنية لا عهد له بها من قبل. لأن هذه العبارات ـ وهي غاية ما يمكن أن تتوصل إليه حصافة البائع المعتزل ـ كانت تصدر عنه في إيمان حار، كما لو أنه قد ابتكرها بنفسه. والغالب أن التجاء الشقي قد منح أسعد شيئاً من الثقة. فها هو ذا أخطر رجل في المنطقة ينحني أمامه في قلق وتواضع.

وفجأة دوت طلقة في الظلام البعيد، فتردد صداها في أرجاء الوادي، ونهض الشقي في تحفز وهلع، وقد شحب وجهه المبتل، وتشنجت ملامحه الصارمة في ابتسامة قاتمة، يمتزج فيها الحنق بالانكسار. وتناول البندقية وهو يقول:

ـ ها هم قد وصلوا. يجب أن أذهب! لا... إنهم يطوقون المكان، ولهذا أطلقوا الرصاص.

وقال أسعد وهو ينهض دون اكتراث:

ـ من الصعب أن يصلوا إلى الكوخ. إنك تستطيع أن تصطادهم واحداً واحداً. هل لديك ما يكفي من الرصاص؟

قال هذا دون أن يخامره أي شعور بالخطأ، لأنه يقف إلى جانب اللص المطارد. وكشف الراشد عن صدره، فرأى أسعد حزامين متصالبين من الرصاص، وعندئذ شعر بطمأنينة مفاجئة، وقال وهو يقترب من الجدار:

ـ لا تخف يا عبد الحي! لدي أيضاً هذه البندقية. إنها للصيد، ولكنها تسقط السلاح من كل يد.

فقال الشقي، وهو يتفرس في وجه أسعد بشيء من الارتياب:

ـ أنت؟؟ تقاتل هؤلاء أيضاً!؟

فأجاب أسعد، وهو يتناول البندقية، ويحشوها بالبارود:

ـ ولماذا لا أفعل؟ إنني أدافع عن بيتي. أنت الآن ضيفي، ولا بد من أن أكون إلى جانبك. لا يمكن أن يأخذوك في هذا المكان. ولا تنس أن الله يحمينا معاً.

حين قال أسعد عبارته الأخيرة، تغيرت لهجته على نحو مفاجئ، واندفع إلى الباب، كما لو أنه ينفذ خطة

صمم عليها، وخرج دون تريث، وعاد بعد هنيهة، وبين يديه صخرة كبيرة، ألقاها في عتبة الكوخ، ثم أغلق الباب، ودحرج الصخرة بقدميه، إلى أن أحكم وضعها تحت النافذة. وقفز عليها وهو يغمغم، كما لو أنه يحدث نفسه:

ـ هكذا نستطيع أن نرى جميع الدروب. أطلق رصاصة في الفضاء إذا اردت... فليأتوا!

كان الشقي، خلال ذلك، يراقبه في دهشة، وكان يرى في هذه التصرفات شيئاً من الحماسة الصبيانية، التي تبعث السخرية أكثر مما تبعث الإعجاب، ومن ثم فقد أحجم عن مسايرته في مثل هذه الاستعدادات الساذجة، بل قال له بلهجة آمرة:

ـ إنك لا تعرف ما يحدث يا أسعد! القضية أنهم قادمون لكي يأخذوني حياً. لذلك فلن تكون معركة. هذا ما أعرفه منذ البداية، ولهذا لا بد من الفرار! أظن أننا نستطيع أن نتسلل قبل طلوع الفجر.... أعني... أنا...

فالتفت إليه أسعد في غضب مفاجئ، وبدا كأنه أصبح شخصاً آخر:

ـ ماذا تقول؟! تهرب من وجههم؟! قلت لك إنهم لا يستطيعون الوصول إلى الكوخ، ما دامت بندقيتي في هذه النافذة.

(كان خلال هذا قد وضع فوهة البندقية في فتحة النافذة).

فصمت الشقي هنيهة، وقبل أن يهم بالكلام، بدأت طلقات الرصاص تزرع سكون الليل. وقال أسعد بلهجة المنتصر:

ـ ألم أقل لك؟ لو أطلقنا رصاصة واحدة، لما حدث هذا. أي مجنون يقترب من الموت؟

كان يتحدث، ويده على زناد البندقية. ولم تمض ثوان قليلة حتى انطلق من نافذة الكوخ دوي جاف، أبتر، بدا وكأنه لم يتجاوز جدران الكوخ. وصار الشقي، وقد فقد السيطرة على أعصابه:

ـ ماذا تفعل؟! هل تدعوهم إلينا؟!

فصدرت عن أسعد ضحكة قصيرة، وقال وهو يسدد البندقية من جديد:

ـ يجب أن يتسلقوا الدرب الصغيرة؛ وعندئذ يعرفون من هنا! وقبل أن يتم كلامه، جاوبته من أسفل المنحدر عدة طلقات. فاندفع إليه الشقي في شراسة، وانتزع البندقية من يديه، وهو يهمس:

ـ إنها حماقة! يجب أن نذهب!

ولكن أسعد دفعه عنه في عنف، واضطر أثناء ذلك إلى أن يفتح النافذة على مصراعيها؛ وفي هذه اللحظة، مرقت رصاصة قريبة، فأصابت كتفه اليسرى، فتراجع بحركة سريعة، ثم سقط على الصخرة، وهو يقول بصوت مختنق:

ـ ماذا حدث؟ كأن النار في كتفي!

ولكنه ما لبث أن نهض على الأثر، وعاد إلى وضعه الأول في النافذة، دون أن يمد يده إلى الكتف الجريح؛ بل التفت إلى الشقي، وهو يقول:

ـ خدش صغير. انظر كيف تتحرك ذراعي في قوة! حتى هذا اليوم، لم يتعطل شيء في جسمي، ولم أمرض في أي يوم! أنظر! لقد جاؤوا... واحداً بعد واحد... ماذا تريدون أيها المساكين؟!

وعلى الرغم من أن شيئاً من الهذيان بدأ يخالط لهجة البائع الجريح، فإنه كان في موقف الجندي الشجاع، الذي صمم على المقاومة إلى النهاية. ولم يفهم عبد الحي الراشد هذا الموقف العجيب. وكان ما يزال في ارتباك شديد. كان يريد الفرار بأي ثمن، ولكن المعركة أصبحت أمراً لا بد منه، بعد أن أثارها أسعد، ولا علاقة له بها على الإطلاق. ومرت فترة طويلة من السكون، ثم بدأ الرصاص يصطدم بجدران الكوخ في أزيز متقطع، ولم يتوقف أسعد عن إطلاق البارود، والتمعت حبات العرق على جبهته، وأحس الحرارة في دمائه. من جديد، هيمن السكون، واستمر ساعة أو أكثر، وكانت عتمة الليل قد بدأت تتجمع في الفضاء، إيذاناً باقتراب الفجر. وقال الشقي، وقد أحكم وضع البندقية على كتفه:

ـ هذا هو الوقت يا أسعد، هيا!

فالتفت إليه أسعد في شيء من الكآبة:

ـ لا! لن تترك التل! لقد انسحبوا، ولن يعودوا.

واضطربت لهجته، وهو يحدق في النافذة، ثم تراجع عنها في هدوء، وجلس على الفراش في إعياء مفاجئ، وقال، كمن يحدث نفسه، في عبارات متقطعة:

ـ المساكين! لا يعرفون أن الله معنا! فيأتون جماعات جماعات لكي يقتلوا شخصاً واحداً. هذه هي أوامر الحكومة. يا للفضيحة! في الصيد لا يجوز أن يضرب الفريسة أكثر من صيادٍ واحد. هذه هي شريعة الله: واحد أمام واحد.

وكان الشقي قد انحنى عليه في إشفاق مفاجئ، وجعل يمسح الجرح، ويحاول تضميده. وقال أسعد وهو في شبه ذهول:

ـ أعطني الجرة... أكاد أحترق!

فقال الراشد:

ـ لا! إحذر الماء! الجريح لا يشرب إلا وهو يموت، وليس بك شيء والحمد لله! هل تشعر بألم؟

فأجاب أسعد في هدوء:

ـ لا، ولكني عطشان!

ورفع رأسه قليلاً، ثم أردف، وقد تبدلت لهجته، فأصبحت أكثر حرارة:

ـ أموت؟! ولماذا؟! كثيرون يجب أن يموتوا قبلي، كثير من الناس، هل تفهم؟! لا أتحدث عنك، فأنت فعلت ما يجب. وليس ذنبك أن الله لم يكن معك، وأنه تخلى عنك.. نعم، هذا ما يفعله الله.. قلت لك إنه معنا دائماً.. وهذا خطأ! حين نكون أشقياء معذبين، أو نكون في خطر، فإنه يتركنا وحيدين أمام المصائب، أتعرف لماذا؟ لأنه يريد أن يجربنا، وينظر ما نفعل... نعم إنه يتخلى عن الفقراء، ويتركهم للجوع، لكي يفعلوا شيئاً من أجل حياتهم.. لكي يصرخوا في وجه السماء، ويرفعوا السلاح إذا استطاعوا.. إنه يراقب، ولا يتدخل،

حتى عندما تجري الدماء من أجل الطعام! إيه! يا عبد الحي، لو تعرف كم حلمت بهذا في السنوات الماضية من حياتي، وكم كان باستطاعتي أن أفعل، لولا خجلي من الله! جميع الذين عشت معهم وعرفتهم.. ذهبوا بسبب الجوع.. الذين سرقوا، والذين قتلوا، والذين كذبوا.. وأبي وأمي.. وزوجتي أيضاً... ليتني كنت أعرف أن الله في هذه الأحوال يتركنا نفعل ما نريد، كما يتركنا الآن أمام الرصاص! اسمع! الله لا يكون معنا إلا في الحالات الأخرى، عندما نستمتع بالملذات، لأننا عندئذ نكون بحاجة إليه.. لكي يعلمنا التعقل والشرف! لماذا لا يفعل ذلك مع الآخرين؟! ولكنه يجربنا في هذه الليلة، ويجب أن نكون أقوياء... يجب أن نريه ماذا نستطيع أن نفعل حين نكون بمفردنا... هيا!!

هذه هي العبارات الغريبة التي جرت على لسان أسعد الوراق، وهو بين الجريح والمحتضر. وقد نقلت عنه فيما بعد، وأضيف إليها الكثير من الحكم، التي جعلت مصير هذا الرجل المغمور صفحة نادرة في تاريخ

تلك المنطقة من الريف، بل لعبت دوراً خفياً في تكوين العقلية الجديدة التي ينسب إليها الكثيرون نزعة الثورة والتمرد لدى الفلاحين في هذه البلاد.

ما حدث بعد ذلك، أن أسعد انتفض في عزيمة مفاجئة وهو يردد:

ـ هيا، يا عبد الحي! هيا! الليل طويل!

وعاد إلى إطلاق الرصاص، واستطاع أن يشغل الدورية حتى الفجر، وكان عبد الحي الراشد قد شق طريق الفرار في الجانب الآخر من المنحدر. وحين أشرقت الشمس كان الكوخ محاصراً بالسلاح. فخرج أسعد والبندقية بيده، وقبل أن يتبين الآخرون غرابة الموقف، أسند ذقنه إلى فوهة البندقية قريباً من العنق، وصاح وهو يرفع عينيه إلى السماء:

ـ هذا ما تريده يا رب! لن أكون جباناً!

وضغط زناد البندقية، فسقط على الأرض جثة دامية.

وهكذا بدأت قصته الحقيقية في حياة الريف، فيقال إن زوجته الخرساء تنبهت في هذه اللحظة تماماً، ونادت باسمه، وانطلق لسانها من عقاله بعد ذلك! وبني له في مكان الكوخ ضريح صغير طلي بالكلس، وفتحت إليه طريق سهلة. وما تزال تقدم له النذور، ويلوذ به المرضى والأشقياء وجميع الذين يلتمسون غفران الذنوب.

إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري - رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد / د. طه حسين ميخائيل نعيمة -فؤاد الشايب -د. محمود أمين العالم - بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني) / إطلالة على :(المصطلح النشأة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني رائد المسرح العربي	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
11	نازك الملائكة	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د. حسين جمعة	د. خالد محي الدين البرادعي	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
15	مختارات من أدب الأطفال	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
16	ياليل ونصوص أخرى	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختارات من الشعر والنثر إصدار الرابطة الثقافية النسائية في دمشق 1944م	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام -ناديا خوست	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
21	التراب الحزين بديع حقي	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القصيدة الدمشقية وقصائد أخرى- نزار قباني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غادة السمان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبة قمر كيلاني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق - مكان وسكان وألوان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2009
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة -خليل السواحري	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
29	جبرا ابراهيم جبرا- عرق وقصص أخرى	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
30	محمود درويش - مختارات شعرية من دواوينه والانترنت	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
31	عائد الى حيفا وأعمال أخرى- غسان كنفاني	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
32	عذبة رواية- صبحي فحماوي	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
33	حكاية الولد الفلسطيني 1971- أحمد دحبور	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
34	أسئلة الثقافة في القدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د. حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان في القصة السورية (حضور المكان)-علي المزعل	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيري الذهبي	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
39	مختارات قصصية رقصة ليلة الوداع - رشاد أبو شاور	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
40	شفيق الكمالي ــ مختارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبير سلطان قدوري	فاديا غيبور	2010
41	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
42	الظل الثالث وقصص أخرى مختارات قصصية - د. خليفة صالح أحواس	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
43	بريجيت مأساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
44	انطوان تشيخوف دراسات ونصوص د. شاكر خصباك	د. ابراهيم الجرادي -عبد العزيز المقالح	د. ابراهيم الجرادي -عبد العزيز المقالح	2010
45	عبد الله البردوني قصائد مختارة ودراسات	د. حسين جمعة	د. ابراهيم الجرادي	2011
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التسعينيات والأنماط الشعرية السائدة)	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
47	مختارات من أدب الخيال العلمي العربي - رقم 004 بأمركم	د. طالب عمران	د. طالب عمران	2011
48	الله والغريب مختارات شعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د. ثائرزين الدين	2011
49	مایاکوفسکي غیمة في سروال	مالك صقور	د. ابراهيم الجرادي	2011
50	سليمان العيسى- اليأس : أمل يستنسخ أوصافه	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
51	محمد الفراتي مأخوذاً بالوردة والسيف مختارات شعرية	د. حسين جمعة	شاهر امرير	2011
52	نزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د. علي جعفر العلاق	د. ابراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي محمد ليف تولستوي	مالك صقور	مالك صقور	2011
55	جان جاك روسو المصلح الاجتماعي - محمد عطية الأبرشي	مالك صقور	مالك صقور	2012
56	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	مالك صقور	مالك صقور	2012
57	حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي	د. جميل صليبا- د. كامل عياد	مالك صقور	2012
58	بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد) عام 1968 مدحة عكاش-	د. حسين جمعة	مالك صقور	2012
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
61	كان ما كان - ميخائيل نعيمة	مالك صقور	مالك صقور	2012
62	إمرأة من برج الحمل - اعتدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صقور	مالك صقور	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
64	الأعاصير - الشاعر القروي رشيد سليم الخوري	د. حسين جمعة	د. ثائرزين الدين	2012
65	عبد اللطيف عقل دراسات ومختارات	ياسين فاعور	ياسين فاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صقور	مالك صقور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
69	الاشتراكية والأدب	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
71	طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكاتبه		مالك صقور	2013
73	ما الشعر العظيم؟	د. نزار بريك هنيدي	د. حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
75	الفقه والتصوف والمسائل الشرعية في الخلافة	أ. محمد راتب الحلاق	مالك صقور	2013
76	ًصالح العلي ثائراً وشاعراً	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
79	الأديب والمفكر أبو حيان التوحيدي	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
81	مديح الظل العالي	أ. د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
82	معارك فكرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
83	واقعية بلا ضفاف	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
85	السيف والترس	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
86	بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
87	الغربال	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
88	الله	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
89	عصا الحكيم	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
90	الفارابي	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
91	الأدب الثوري عبر التاريخ	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
92	المسألة اليهودية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
93	مذكرات مستر همفر	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015
94	صوت أبي العلاء	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015
95	فن الأدب (جزء 1)	مالك صقور	رضوان قضماني	2015
96	فن الأدب (جزء 2)	مالك صقور	رضوان قضماني	2015
97	الإسلام بين العلم والمدنية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
98	حكيم الدهر أبي العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2015
99	شظايا من عمري	شاهر أحمد ناصر	مالك صقور	2015
100	لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
101	الدين والعلم والمال		مالك صقور	2015

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
102	غابة الحق (أفق التنوير وجماليات السرد)	نذير جعفر	د. نضال الصالح	2015
103	في الحياة والأدب	نذير جعفر	د. نضال الصالح	2015
104	إن الأدب كان مسؤولاً	مالك صقور	د. نضال الصالح	2016
105	أسرة المرّاش الأدبية في حلب	د. نضال الصالح	عيسى فتوح	2016
106	الجوهر الرجعي للصهيونية	مالك صقور	مالك صقور	2016
107	سريال وقصائد أخرى	د. نـــزار بريـــك هنيدي	د. نضال الصالح	2016
108	حضارة الطين	إسماعيل الملحم	مالك صقور	2016
109	ضرورة الفن الجزء الأول	نذير جعفر	مالك صقور	2016
110	ضرورة الفن الجزء الثاني	نذير جعفر	مالك صقور	2016
111	قادة الفكر	فلك حصرية	مالك صقور	2016
112	جرائم تركيا في سوريا والعراق والحجاز ولبنان	حكمـــت إبـــراهيم هلال	مالك صقور	2016
113	خارج الحريم	إسماعيل الملحم	مالك صقور	2016
114	عيسى عصفور (بلاغة البازلت)	ثائر زين الدين	ثائر زين الدين	2016
115	رحلـة الشـام لإبـراهيم عبـد القـادر المازني	د. نـــزار بنـــي المرجة	د. نضال الصالح	2017
116	(عمـلاء النفـوذ) وتفكيـك الاتحـاد السوفييتي	د. ناديا خوست	مالك صقور	2017
117	المذابح في أرمينيا	حكمـــت بـــراهيم هلال	مالك صقور	2017
118	نزاريَّات... أيقونة الحب... والوطن	فلك حصرية	فلك حصرية	2017
119	من ديوان الجرح السوري	ثائر زين الدين	ثائر زين الدين	2017